



للعلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

رحمه الله

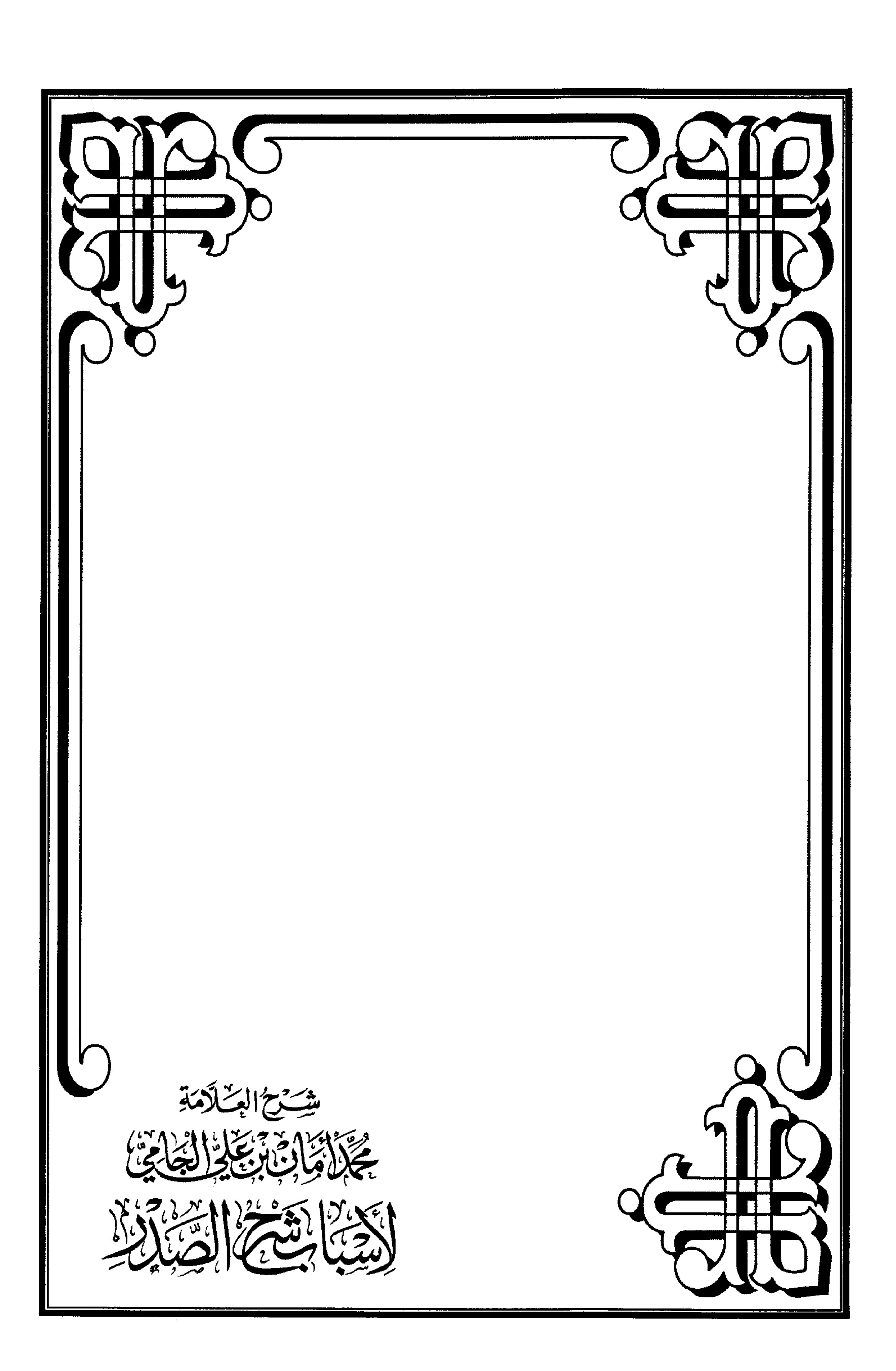
عني به وعلق عليه

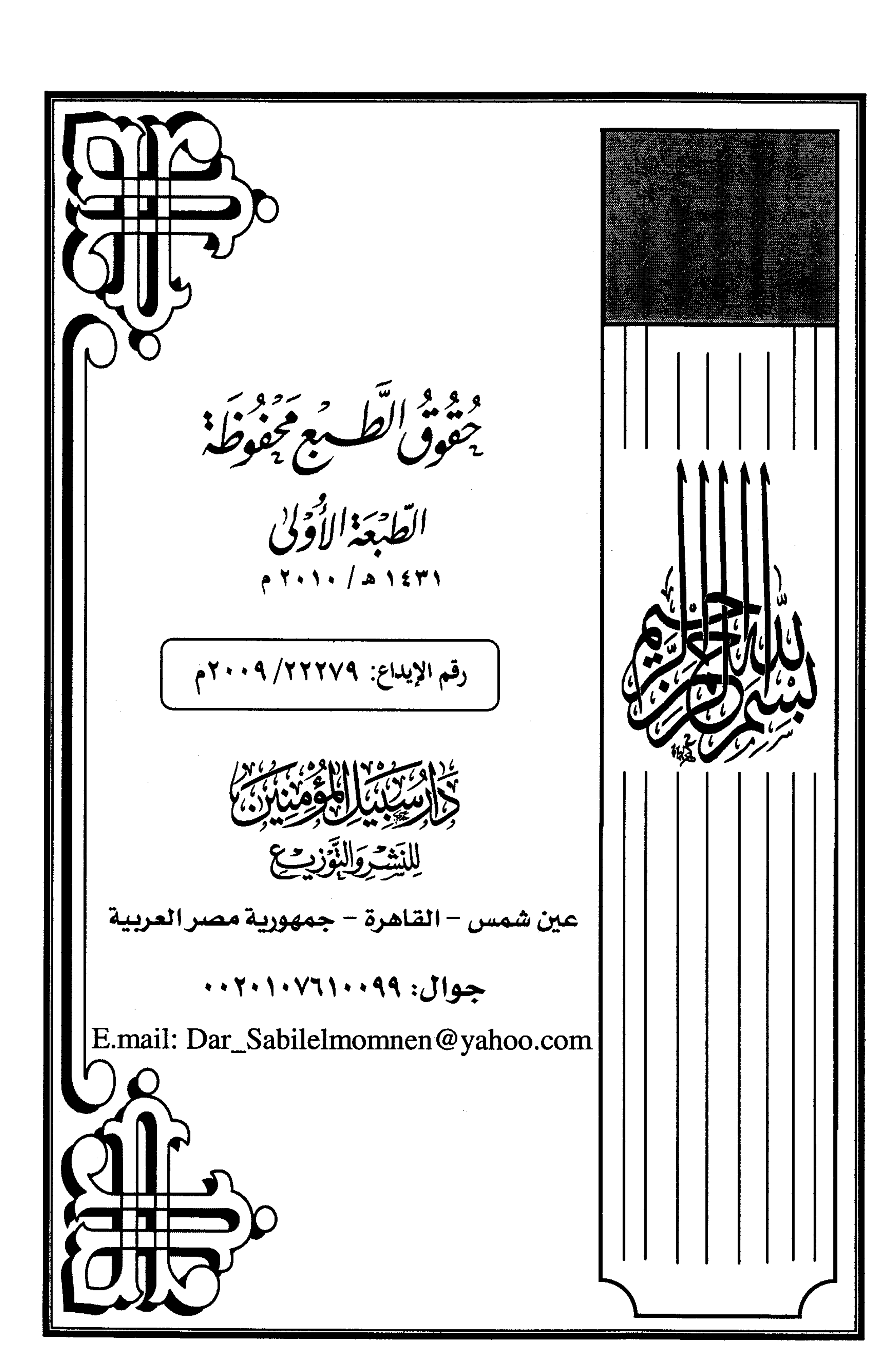
أبو همام محمد بن علي الصومعي البيضاني

غفر الله له

دار سبيل المؤمنين

للنشر والتوزيع


شرح العلامة
محمد أمان بن علي الجامي
لأسباب شرح الصدر



الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

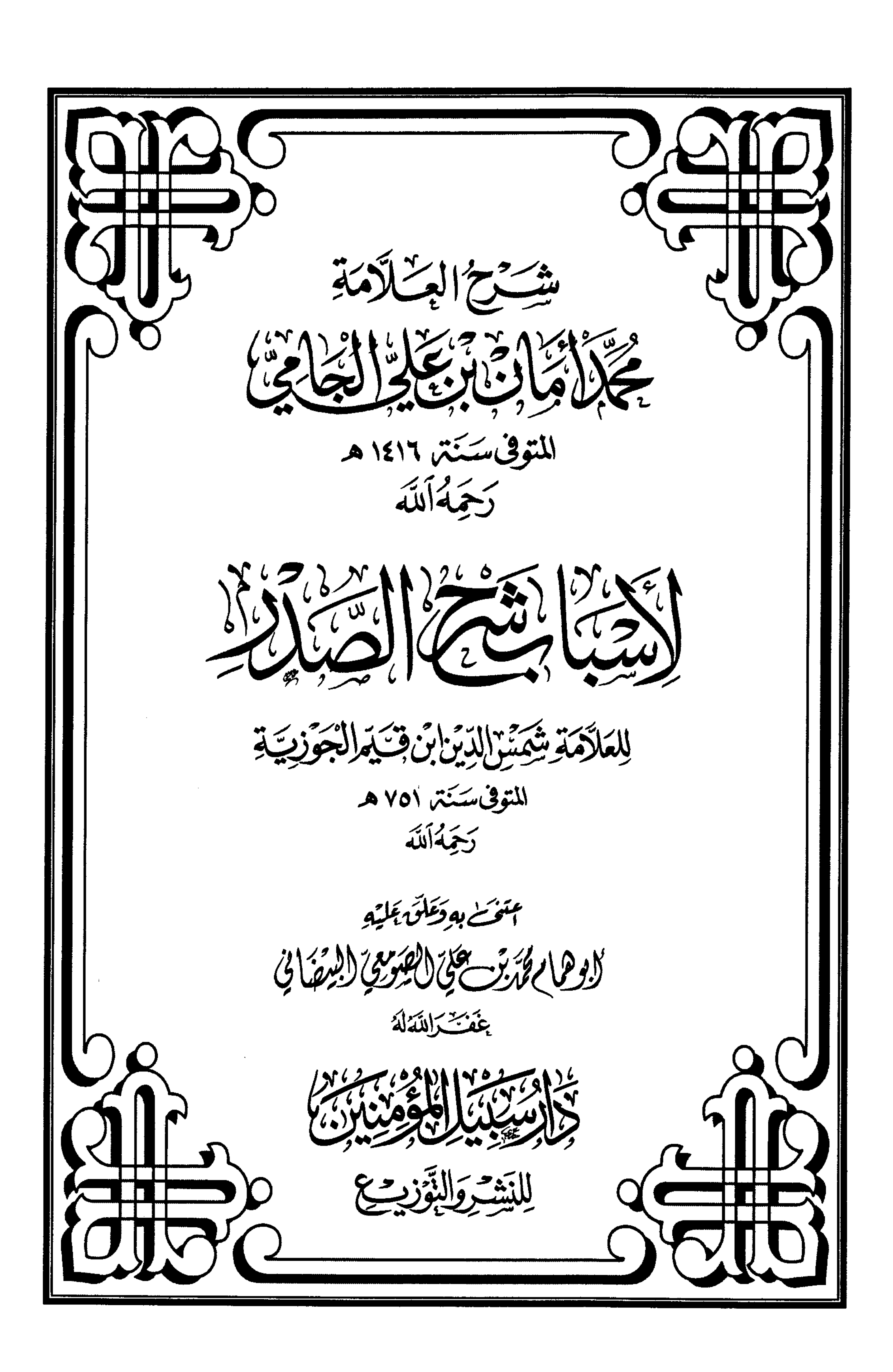
رقم الإيداع: ٢٢٢٧٩/ ٢٠٠٩م

دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع

عين شمس - القاهرة - جمهورية مصر العربية

جوال: ٠٠٢٠١٠٧٦١٠٠٩٩

E.mail: Dar_Sabilelmomnen@yahoo.com


شرح العلامة

محمد أمان بن علي الجامي

المتوفى سنة ١٤١٦ هـ

رحمه الله

لأسباب شرح الصدر

للعلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

رحمه الله

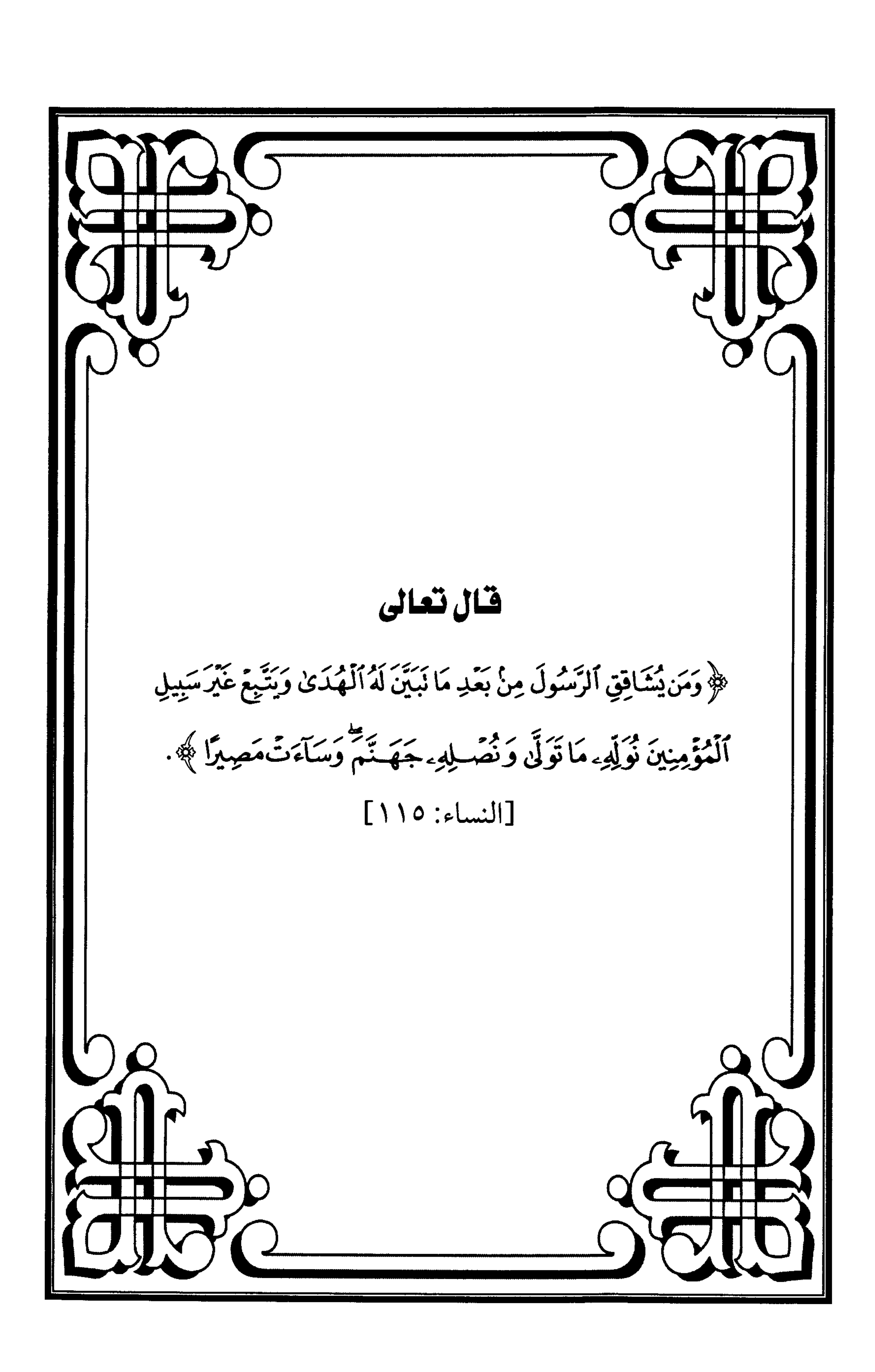
اعتنى به وعلق عليه

أبو همام محمد بن علي الصومعي البيضاني

غفر الله له

دار سبيل المؤمنين

للنشر والتوزيع



قال تعالى

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾.

[النساء: ١١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن انشراح صدر العبد لـمن أعظم الأمور وأجلِّها إعانةً له علىٰ عبادة ربه ومولاه علىٰ الوجه الذي يرضيه، بيْد أن لذلك أسبابًا؛ فلهذا يجب علىٰ العبد أن يبحث جاهِدًا عن تِلْكُم الأسباب، ومن وُفِّق لذلك، ورزقه الله صدرًا منشرحًا فهو علىٰ نورٍ من ربه، ومن كان كذلك فقد حاز علىٰ خيري الدنيا والآخرة.

لذا قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر، آية: ٢٢].

فانشراح الصدر دليل علىٰ هداية الله لهذا العبد، كما أن ضيق الصدر الذي يكون سببًا لعدم قبول ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ من علامات الشقاء.

ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام، آية: ١٢٥].

وهذه الهداية المذكورة في الآية هي: هداية التوفيق والإلهام، التي لا يملكها إلا الله، والموفَّق من وفقه الله.

فحريٌّ بالعاقل أن يسعىٰ سعيًا حثيثًا للبحث عن أسباب انشراح صدره وانفساحه، ويبتعد عن الأسباب التي تكون وسيلة لضيق صدره.

ورحم الله ابن القيم حيث يقول في «شفاء العليل» (صـ ١٠٦).

«ولما كان القلب محلًّا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما

تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد وسَّع صدره وشرحه؛ فدخلت فيه وسكنته، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره وأَحْرَجَه؛ فلم يجد محلًّا يدخل فيه، فيعدل عنه ولا يساكنه، وكلّ إناءٍ فارغ إذا دخل فيه الشيءُ ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق، إلا القلب اللين، فكلما أُفرغ فيه الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالىٰ .

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدىٰ، وتضييقه من أسباب الضلال.

كما أن شرحه من أَجَلِّ النِّعَمِ، وتضييقه من أعظم النِّقَم.

فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه في هذه الدار علىٰ ما ناله من مكروهها، وإذا قوي الإيمان وخالطت بشاشته القلوب؛ كان علىٰ مكارهها أشرح صدرًا منه علىٰ شهواتها ومحابِّها، فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجنٍ ضيقٍ إلىٰ فضاءٍ واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأىٰ من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه.

فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية، فهو أصل كلِّ نعمة، وأساس كلِّ خير.

وقد سأل كَلِيمُ الرحمن موسىٰ بن عمران ربَّه أن يشرح له صدره لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره، وقد عدَّد سبحانه من نعمه علىٰ خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام...» اهـ.

قلت: والأسباب التي تشرح الصدر كثيرة منها:

العلم؛ فإنه يشرح الصدر ويوسعه.

والإنابة إلىٰ الله، ومحبته، والإقبال عليه، والتنعُّم بعبادته؛ فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك ودوام ذكره سبحانه وتعالىٰ؛ فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر

ونعيم القلب، وكذلك الإحسان إلىٰ الخلق بما يمكن من المال والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان؛ فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا»[(١)].

وإن العبد إذا يسر الله له ذلك عرف حقارة الدنيا، وزالت عنه همومها وغمومها ونكدها وأكدارها، بل لو تكالب عليه الأعداء من كلِّ جانب ما زاده ذلك إلا سعادة إلىٰ سعادته.

ورسول الله ﷺ «كان أكمل الخَلْقِ في كل صفةٍ يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح؛ فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين، وعلىٰ حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال؛ فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه»[(٢)].

وتأمل في كلام ابن القيم وهو يتحدث عن شيخه الإمام ابن تيمية - رحمهما الله جميعًا - عندما سُجِنَ وحصل له ما حصل من النفي والتعذيب؛ فقال: «وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفارقني؛ إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، وما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير. ونحو هذا.

وكان يقول وهو محبوس: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وقال لي مرة: المحبوس من حُبِسَ قلبه عن ذكر الله تعالىٰ، والمأسور من أسَرَه هواه.

---

(١) ما بين الأقواس مقتبس من كلام لابن القيم.

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٢٧ - ٢٨).

ولما أُدخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها؛ نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد، آية: ٣].

وعَلِمَ الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه...» اهـ[1].

وللإمام ابن القيم كلام جميل جدًّا تكلم فيه عن أسباب انشراح الصدر، أودعه كتابه النفيس: «زاد المعاد في هدي خير العباد»[2]، وكان العلامة السلفي محمد أمان بن علي الجامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قام بشرحه، وسُجل ذلكم الشرح في شريطين، وعندما سمعته وجدته شرحًا علميًّا؛ فأعجبت به، وعزمت علىٰ تفريغه والتعليق عليه؛ فيسر الله ذلك، فله الحمد والمنة، وعملي هو ما يلي:

١- قمت بتفريغ مادة هذا الدرس من الشريطين.

٢- أذكر كلام ابن القيم ثم شرح الشيخ له.

٣- لم أتصرف في كلام الشيخ، وإنما قمت بحذف ما تكرر؛ لأن الإلقاء في الدروس ليس كالتأليف.

٤- جعلت لذلك عناوين بارزةً.

٥- علقت ببعض التعليقات المفيدة لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ.

٦- صنعت فهرسًا لمادة الكتاب.

---

(١) «الوابل الصيب» ص (١٠٩ - ١١٠).

(٢) (٢/ ٢٧ - ٢٨) فصل في أسباب شرح الصدور...

٧- ترجمت للإمام ابن القيم والشارح رحمهما الله تعالىٰ[١].

ولا يفوتني أن أشكر الأخ إياد بن محمود العدني علىٰ كتابته لمادة ما في الشريطين؛ فجزاه الله خيرًا.

وأسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

---

(١) أما ترجمة ابن القيم فأخذتها من مقدمة تحقيق الشيخ سليم الهلالي لكتاب «الوابل الصيِّب» لابن القيم، وهي ترجمة جيدة لاختصارها، وحسن ترتيبها، والتعليقات التي عليها هي له كذلك، وأما ترجمة الشارح فهي مأخوذة عن مطوية من إصدار مكتبة الفرقان بـ«الإمارات» بواسطة مقدمة المعتني بـ«شرح الأصول الثلاثة» للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ترجمة العلامة ابن القيم

رحمه الله تعالى

* نسبه ونسبته:

هو الفقيه، المفتي، المحدث، المجتهد، الإمام الرباني، شيخ الإسلام الثاني: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد[١] الزُّرعي[٢] ثم الدمشقي[٣]، الشهير بـ«ابن قيم الجوزية»[٤]، لا غيره، خلافًا للكوثري[٥] الذي نبزه

(١) اتفقت مصادر ترجمته علىٰ جرِّ نسبه إلىٰ جد أبيه «سعد» ثم اختلفت.

(٢) ولادة، نسبة إلىٰ «زرع»، ويقال لها اليوم: «أزرع»: قرية من أعمال حوران، ويراها المسافر من عمان إلىٰ دمشق عن يمينه بين درعا والشيخ مسكين. وحوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرىٰ كثيرة ومزارع، وقصبتها بصرىٰ كما في «معجم البلدان» (٣/ ٧١٣).

(٣) انتقالًا، وإقامةً، ووفاةً.

(٤) إذ كان أبوه رحمه الله قيِّمًا(*) علىٰ المدرسة الجوزية؛ فقيل له: «قيم الجوزية»، واشتهرت به ذريته من بعده؛ فكان يقال للواحد منهم: «ابن قيم الجوزية».

والجوزية: من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق الشام؛ نسبة إلىٰ واقفها يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله، ولا يزال موقعها معروفًا في «حي البزورية» المسمىٰ قديمًا: «سوق القمح»، وقد اختلس جيرانها معظمها، وبقيت منها بقية.

ثم صارت محكمة سنة (١٣٢٧ هـ)، ثم أقفلت مدة إلىٰ أن فتحتها جمعية الإسعاف الخيرية مدرسة لتعليم الأطفال، وقد احترقت سنة (١٩٣٥م) أثناء الثورة السورية علىٰ الفرنسيين، ثم أعيد بناؤها.

أفاده ابن بدران في «منادمة الأطلال» (ص ٢٢٧)، ومحمد مسلم الغنيمي في «ابن قيم الجوزية» (ص ١٠٠).

(٥) هو محمد زاهد بن الحسن الكوثري، شركسي الأصل، حنفي المذهب، جهمي المعتقد، ولد بقرية «دوزجة» شرقي «الأستانة» سنة (١٢٩٦ هـ)، ثم انتقل إلىٰ مصر، واستقر فيها، وله تعليقات كثيرة علىٰ كتب الحديث والعقائد؛ أفسد وأساء، وكان جُلُّ همِّه التنقص من أهل الحديث عامة وشيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية بخاصة، توفي سنة (١٣٧١هـ).

ترجمته في: «مقالات الكوثري» (مقدمته ص ٥ - ٧٧)، و«الأعلام» (٦/ ١٢٩).

(*) مشرفًا علىٰ إدارتها، وناظرًا عليها.

بـ«ابن زفيل»[(١)].

*** ولادته:**

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السابع من شهر صفر الخير سنة (٦٩١ هـ).

*** أسرته ونشأته وطلبه للعلم:**

نشأ ابن قيم الجوزية في جو علمي في كنف والده الشيخ الصالح قيم الجوزية، وأخذ عنه الفرائض، وذكرت كتب التراجم بعض أفراد أسرته، كابن أخيه أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن زين الدين عبد الرحمن الذي اقتنىٰ أكثر مكتبة عمه، وأبنائه: عبد الله، وإبراهيم، وكلهم معروف بالعلم وطلبه.

وعرف عن ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرغبة الصادقة الجامحة في طلب العلم، والجلَد والتفاني في البحث منذ نعومة أظفاره؛ فقد سمع من الشهاب العابر المتوفىٰ سنة (٦٩٧ هـ) فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم[(٢)] عليه؛ لصغر السن، واخترام المنية له رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(٣)]، وبهذا يكون قد بدأ الطلب لسبع سنين مضت من عمره.

*** رحلاته:**

قَدِمَ ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ القاهرة غير مرة، وناظر، وذاكر.

وقد أشار إلىٰ ذلك المقريزي؛ فقال: «وقدم القاهرة غير مرة»[(٤)].

---

(١) وقد بيَّن زيف هذا اللقب الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه: «ابن قيم الجوزية: حياته، وآثاره» (ص١٨ - ٢٠).

(٢) هو علم تعبير الرؤىٰ.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣).

(٤) «السلوك» (٢/ ٨٣٤).

وقال: «وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر»[١].

وقال: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة»[٢].

وزار بيت المقدس، وأعطىٰ فيه دروسًا.

قال: «ومثله لي قلته في القدس»[٣].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير الحج والمجاورة، كما ذكر في بعض كتبه[٤].

قال ابن رجب: «وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدّة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يُتعجب منه»[٥].

*** مكتبته:**

كان ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُغرمًا بجمع الكتب، وهذا دليل الرغبة الصادقة في العلم بحثًا وتصنيفًا، وقراءةً، وإقراءً، يظهر ذلك في غزارة المادة العلمية في مؤلفاته، والقدرة العجيبة علىٰ حشد الأدلة.

وقد وصف تلاميذه - رحمهم الله - مكتبته؛ فأجادوا:

قال ابن رجب: «وكان شديد المحبة للعلم، وكتابته، ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنىٰ من الكتب ما لم يحصل لغيره»[٦].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واقتنىٰ من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِهِ من

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٧).

(٢) «هداية الحيارىٰ» (ص ٨٧).

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٤٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٥) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨).

(٦) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٩).

كتب السلف والخلف»[١].

قلت: ومع هذا كله يقول بتواضع جم: «بحسب بضاعتنا المزجاة من الكتب»[٢].

ورحم الله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية القائل: «فمن نوَّر الله قلبه هداه ما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالة»[٣].

*** مشاهير شيوخه:**

تلقىٰ ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلم علىٰ كثير من المشايخ، ومنهم:

١- قيم الجوزية والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد لازمه، وتفقه به، وقرأ عليه كثيرًا من الكتب، وبدأت ملازمته له سنة (٧١٢ هـ) حتىٰ توفي شيخ الإسلام سجينًا في قلعة دمشق (٧٢٨ هـ).

٣- المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

*** تلاميذه:**

١- ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صرح بأنه شيخه، ثم قال: «ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة، وأشياء من تصانيفه وغيرها»[٤].

٢- ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية» (٤١/ ٢٣٥).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٢٩).

(٣) «الوصية الصغرىٰ» (ص ٦١)

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٧- ٤٤٨ و ٤٥٠).

(٥) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

٣- الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ترجم لابن قيم الجوزية في المعجم المختص بشيوخه[١].

٤- ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كما قال ابن رجب: «وكان الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون له؛ كابن عبد الهادي، وغيره»[٢].

٥- الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب «القاموس المحيط»؛ كما قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ارتحل إلىٰ دمشق فدخلها سنة (٧٥٥ هـ)[٣] سمع من التقي السبكي وجماعة زيادة عن مائة؛ كابن القيم»[٤].

*** علاقته بشيخه ابن تيمية ومنهجه:**

بدأت ملازمة ابن قيم الجوزية لشيخ الإسلام ابن تيمية عند قدومه إلىٰ دمشق سنة (٧١٢ هـ)، واستمرت إلىٰ وفاة الشيخ سنة (٧٢٨هـ)، وبهذا تكون مدة مرافقة ابن قيم الجوزية لشيخه ستة عشر عامًا، بقي طيلتها قريبًا منه يتلقَّىٰ عنه علمًا جمًّا، وقرأ عليه فنونًا كثيرة.

قال الصفدي: «قرأ عليه قطعة من «المحرر» لجده المجد، وقرأ عليه من «المحصول»، ومن كتاب «الأحكام» للسيف الآمدي، وقرأ عليه قطعة من «الأربعين» و«المحصل»، وقرأ عليه كثيرًا من تصانيفه»[٥].

وبدأت هذه الملازمة بتوبة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ يدي شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛

---

(١) ترجمة رقم (٣٤٧).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٩).

(٣) هكذا في الأصل، وهو خطأ ظاهر؛ لأن ابن قيم الجوزية توفي سنة (٧٥١ هـ) فتنبه؛ فلم يلتفت إلىٰ هذا جُلُّ من نقله وترجم لابن قيم الجوزية.

(٤) «البدر الطالع» (٢/ ٢٨٠).

(٥) «الوافي بالوَفَيَات» (١٢/ ٢٧٠ - ٢٧١).

كما أشار إلىٰ ذلك بقوله[1]:

يا قوم والله العظيم نصيحة ... من مشفق وأخ لكم معوان

جربت هذا كله ووقعت في ... تلك الشباك وكنت ذا طيران

حتىٰ أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني

فتىٰ أتىٰ من أرض حرّان فيا ... أهلًا بمن قد جاء من حرَّان

وكان لهذه الملازمة أثرٌ بالغٌ في نفس ابن قيم الجوزية؛ فشارك شيخه في الذب عن المنهج السلفي، وحمل رايته من بعده، وتحرر من كل تبعية لغير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بفهم السلف الصالح.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس له علىٰ غير الدليل معول في الغالب، وقد يميل نادرًا إلىٰ المذهب الذي نشأ عليه، ولكنه لا يتجاسر علىٰ الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة؛ كما يفعله غيره من المتمذهبين، بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال، وعدم التعويل علىٰ القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيوله أتىٰ بما لم يأتِ به غيره، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل، وأظنها سرت إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء[2]، والقيام معه في محنه، ومواساته بنفسه، وطول تردده إليه.

وبالجملة؛ فهو أحد من قام بنشر السُّنَّة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جُنَّة؛ فرحمه الله، وجزاه عن المسلمين خيرًا»[3].

---

(١) «الكافية الشافية» (ص١٠٦ - ١٠٧).

(٢) هي بركة العلم الموروث عن نبينا محمد ﷺ، وفهمه بمنهج سلف الأمة الذي تربىٰ عليه علىٰ عين شيخه شيخ الإسلام - رحمهما الله -.

(٣) «البدر الطالع» (٢/ ١٤٤ - ١٤٥).

ومع هذا كله فلم يكن ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نسخة من شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل كان متفننًا في علوم شتىٰ - باتفاق المتقدمين والمتأخرين - تدل علىٰ علو كعبه، ورسوخه في العلم.

وكيف يكون ابن قيم الجوزية مرددًا لصدىٰ صوت شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ينكر التقليد، ويحاربه بكل ما أوتي من حول وقوة؟!

*** ثناء العلماء عليه:**

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، ولا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلىٰ أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا، مع ما سلف له من الاشتغال؛ فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلًا ونهارًا، وكثرة الابتهال، وكان حسن القراءة والخلق، وكثير التودد، لا يحسد أحدًا، ولا يؤذيه، ولا يستغيبه، ولا يحقد علىٰ أحد، وكنت أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا، ويمد ركوعه وسجوده، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطه الحسن شيئًا كثيرًا، واقتنىٰ من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِه من كتب السلف والخلف.

وبالجملة، كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه»[(١)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتفقه في المذهب، وبرع وأفتىٰ، ولازم الشيخ تقي الدين،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارىٰ فيه، وبأصول الدين - وإليه فيهما المنتهىٰ - والحديث: معانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولىٰ، وتعلم الكلام، والنحو، وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولىٰ.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا عبادة، وتهجد، وطول صلاة إلىٰ الغاية القصوىٰ، وتأله، ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة، والاستغفار، والافتقار إلىٰ الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثله»[(١)].

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان ذا فنون في العلوم، وخاصة التفسير، والأصول: في المنطوق والمفهوم»[(٢)].

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد صنف، وناظر، واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير، والحديث، والفروع، والأصلين، والعربية»[(٣)].

*** مؤلفاته:**

ضرب ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ بحظ وافر في علوم شتىٰ، يظهر هذا الأمر جليًّا لمن استقصىٰ كتبه التي كانت للمتقين إمامًا، وأفاد منها الموافق والمخالف.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨).

(٢) «الرد الوافر» (ص٣٥ - ٣٦).

(٣) «بغية الوعاة» (١/ ٦٣).

الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف؛ لكان غاية في الدلالة علىٰ عظم منزلته»[1].

وإليك أشهرها مرتبة على حروف المعجم:

١- «اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية».

٢- «أحكام أهل الذمة».

٣- «إعلام الموقعين عن رب العالمين».

٤- «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان».

٥- «بدائع الفوائد».

٦- «تحفة المودود في أحكام المولود» وقد حققت نصوصه - بحمد الله - علىٰ ثلاث نسخ خطية، وخرجت أحاديثه وآثاره، وهو مطبوع.

٧- «تهذيب مختصر سنن أبي داود».

٨- « الجواب الكافي»، وهو المسمىٰ: «الداء والدواء».

٩- «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ محمد ﷺ خير الأنام».

١٠ - «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح».

١١ - «حكم تارك الصلاة».

١٢ - «الرسالة التبوكية» وقد حققته - بحمد الله - علىٰ نسخة خطية نادرة، وخرجت أحاديثه، وعلقت عليه، وهو مطبوع.

١٣ - «روضة المحبين، ونزهة المشتاقين».

١٤ - «الروح».

١٥ - «زاد المعاد في هدي خير العباد».

---

(١) «الرد الوافر» (ص ٦٤).

١٦ - «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

١٧ - «الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة».

١٨ - «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

١٩ - «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية».

٢٠ - «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وقد حققته - بحمد الله وفضله -، علىٰ نسختين خطيتين، وخرجت أحاديثه وآثاره، وعلقت عليه، وهو مطبوع.

٢١ - «الفروسية».

٢٢ - «الفوائد»، وقد حققته، وخرجت أحاديثه وآثاره، وهو مطبوع.

٢٣ - «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي «القصيدة النونية».

٢٤ - «الكلام علىٰ مسألة السماع».

٢٥ - «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾».

٢٦ - «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة».

٢٧ - «المنار المنيف في الصحيح والضعيف».

٢٨ - «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ».

٢٩ - «الوابل الصيب في الكلم الطيب».

*** محنة وثبات:**

حبس مع شيخه ابن تيمية في المرة الأخيرة في القلعة، منفردًا عنه، بعد أن أهين، وطيف به علىٰ جمل، مضروبًا بالدِّرَّة، سنة: (٧٢٦هـ)، ولم يفرج عنه إلا بعد موت شيخه سنة (٧٢٨ هـ)[١].

وحبس مرة لإنكاره شدَّ الرحال إلىٰ قبر الخليل.

---

(١) «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد امتحن وأوذي مرات»[1].

*** وفاته:**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة الخميس، ثالث وعشرين من رجب الفرد، سنة (٧٥١هـ)، ودفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلىٰ، وجمعنا وإياه في عليين، مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

*** مصادر ترجمته:**

١ - «أبجد العلوم» صديق حسن خان (٣/ ١٣٨).

٢- «البداية والنهاية» ابن كثير (١٤/ ٢٣٤).

٣- «البدر الطالع» الشوكاني (٢/ ١٣٤).

٤- «بغية الوعاة» للسيوطي (١/ ٦٢).

٥- «التاج المكلل» صديق حسن خان (ص٤١٦).

٦- «الدرر الكامنة» ابن حجر (٤/ ٢١ - ٢٣).

٧- «ذيل طبقات الحنابلة» ابن رجب (٢/ ٤٤٧).

٨- «ذيل العبر في خبر من عبر» (٥/ ٢٨٢).

٩- «الرد الوافر» ابن ناصر الدين الدمشقي (ص ٦٨

١٠ - «شذرات الذهب» ابن العماد (٦/ ١٦٨).

١١ - «طبقات المفسرين» للداوودي (٢/ ٩٣).

١٢ - «الفتح المبين في طبقات الأصوليين» المراغي (٢/ ٧٦).

وقد صنفت كتب مفردة، مثل:

١ - «ابن قيم الجوزية» محمد مسلم الغنيمي.

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨).

٢- «ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره» بكر بن عبد الله أبو زيد.

٣- «ابن قيم الجوزية: عصره ومنهجه» عبد العظيم عبد السلام.

٤- «ابن القيم اللغوي» أحمد ماهر البقري.

٥- «ابن القيم وآثاره العلمية» أحمد ماهر البقري.

٦- «ابن قيم الجوزية وموقفه من التفكير الإسلامي» عوض الله حجازي.

❁ ❁ ❁

ترجمة
فضيلة العلامة محمد أمان الجامي
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

اسمه ونسبه:

هو: أبو أحمد محمد أمان بن علي جامي علي.

موطنه ومولده:

الحبشة، منطقة هرر، قرية «طغا طاب»، وُلد- كما هو مدوَّن في أوراقه الرسمية - سنة ١٣٤٩هـ.

*** طلبه للعلم:**

أ - طلبه للعلم في الحبشة:

نشأ الشيخ في قرية «طغا طاب»، وفيها تعلم القرآن الكريم، وبعدما ختمه شرع في دراسة كتب الفقه علىٰ مذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، ودرس العربية في قريته أيضًا علىٰ الشيخ محمد أمين الهرري، ثم ترك قريته - علىٰ عادة أهل تلك الناحية - إلىٰ قرية أخرىٰ، وفيها التقىٰ مع زميل طلبه وهجرته إلىٰ البلاد السعودية الشيخ عبد الكريم، فانعقدت بينهما الأخوة الإسلامية، ثم ذهبا معًا إلىٰ شيخ يُسمىٰ: الشيخ موسىٰ، ودرسا عليه «نظم الزبد» لابن رسلان، ثم درسا متن «المنهاج» علىٰ الشيخ أبادر، وتعلما في هذه القرية عدة فنون.

ثم اشتاقا إلىٰ السفر للبلاد المقدسة مكة المكرمة؛ للتعلم، وأداء فريضة الحج، فخرجا من الحبشة إلىٰ الصومال، فركبا البحر متوجهين إلىٰ عدن - حيث واجهتهما مصاعب ومخاطر في البحر والبر - ثم سارا إلىٰ الحُدَيدة سيرًا علىٰ الأقدام، فصاما شهر

رمضان فيها، ثم غادرا إلىٰ السعودية، فمرا بصامطة، وأبي عريش؛ حتىٰ حصلا علىٰ إذن الدخول إلىٰ مكة، وكان هذا سيرًا علىٰ الأقدام.

وفي اليمن حذرهما بعض الشيوخ فيها من الدعوة السلفية، التي يطلقون عليها: الوهابية.

ب - طلبه للعلم في السعودية:

بعد أداء الشيخ فريضة الحج عام (١٣٦٩هـ)؛ بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طلبه للعلم بالمسجد الحرام في حلقات العلم المبثوثة في رحابه، واستفاد من فضيلة الشيخ/ عبد الرزاق حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفضيلة الشيخ/ عبد الحق الهاشمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفضيلة الشيخ/ محمد عبد الله الصومالي، وغيرهم.

وفي مكة تعرَّف علىٰ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصَحِبهُ في سفره إلىٰ الرياض؛ لما افتُتِح المعهد العلمي، وكان ذلك في أوائل السبعينيات الهجرية.

وممن زامله في دراسته الثانوية بالمعهد العلمي: فضيلة الشيخ/ عبد المحسن بن حمد العباد، وفضيلة الشيخ/ علي بن مهنا، القاضي بالمحكمة الشرعية الكبرىٰ بالمدينة سابقًا؛ كما أنه لازم حِلَق العلم المنتشرة في الرياض، فقد استفاد وتأثر بسماحة المفتي العلَّامة الفقيه الأصولي الشيخ/ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما كان ملازمًا لفضيلة الشيخ/ عبد الرحمن الإفريقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما لازم سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنهل من علمه الجم، وخُلُقِهِ الكريم.

كما أخذ العلم بالرياض علىٰ فضيلة الشيخ/ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفضيلة الشيخ العلَّامة المحدِّث/ حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتأثر المُتَرجم له بالشيخ/ عبد الرزاق عفيفي كثيرًا؛ حتىٰ في أسلوب تدريسه، كما استفاد وتأثر بفضيلة الشيخ العلَّامة/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كانت بينهما مراسلات، علمًا بأن

المُتَرجم له لم يدرس علىٰ الشيخ/ السعدي، كما تعلم علىٰ فضيلة الشيخ العلَّامة/ محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان متأثرًا به أيضًا، كما استفاد من فضيلة الشيخ/ عبد الله القرعاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مؤهلاته الدراسية:

حصل علىٰ الثانوية من المعهد العلمي بالرياض، ثم انتسب بكلية الشريعة، وحصل علىٰ شهادتها سنة (١٣٨٠ هـ) ثم معادلة الماجستير في الشريعة من جامعة البنجاب: (عام ١٩٧٤م)، ثم الدكتوراه من دار العلوم بالقاهرة.

❋ ❋ ❋

فصلٌ في مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه

لقد كان للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكانته العلمية عند أهل العلم والفضل؛ فقد ذكروه بالجميل، وكان محل ثقتهم، بل بلغت الثقة بعلمه وعقيدته؛ أنه عندما كان طالبًا بالرياض، ورأىٰ شيخُه سماحةُ الشيخ/ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ نجابته، وحرصه علىٰ العلم؛ قدمه إلىٰ سماحة الشيخ/ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث تم التعاقد معه للتدريس بمعهد صامطة العلمي بمنطقة جازان.

وأيضًا مما يدل علىٰ الثقة بعلمه، وعقيدته، ومكانته عند أهل العلم: أنه عند افتتاح الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة انتُدب للتدريس فيها بعد وقوع اختيار سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه، ومعلوم أن الجامعة الإسلامية أُنشئت لنشر العقيدة السلفية، وقد أوكَلَت الجامعة تدريس هذه العقيدة إلىٰ فضيلة المُتَرجم له بالمعهد الثانوي ثم بكلية الشريعة ثقةً بعقيدته وعلمه ومنهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك ليُسهم في تحقيق أهداف الجامعة.

وإليك - أخي القارئ - كلام العلماء الثقات فيما كتبوه عن الشيخ رحمه الله:

*** سماحة الشيخ العلَّامة عبد العزيز بن باز رحمه الله:** ففي كتاب سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية - رقم (٦٤) في ٩/ ١/ ١٤١٨هـ - قال عن الشيخ محمد أمان: «معروفٌ لديَّ بالعلم، والفضل، وحسن العقيدة، والنشاط في الدعوة إلىٰ الله سبحانه، والتحذير من البدع والخرافات، غفر الله له، وأسكنه فسيح جناته، وأصلح ذريته، وجمعنا وإياكم وإياه في دار كرامته، إنه سميع قريب».

*** فضيلة الشيخ العلامة صالح الفوزان، عضو هيئة كبار العلماء:** وكتب فضيلته في كتابه المؤرخ (٣/ ٣/ ١٤١٨هـ) قائلًا: «الشيخ محمد أمان كما عرفته: إن المتعلمين وحملة الشهادات العليا المتنوعة كثيرون، ولكن قليلٌ منهم من يستفيد من علمه ويستفاد منه، والشيخ محمد أمان الجامي هو من تلك القلة النادرة من العلماء، الذين سخَّروا علمهم وجهدهم في نفع المسلمين، وتوجيههم بالدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة، من خلال تدريسه في الجامعة الإسلامية، وفي المسجد النبوي الشريف، وفي جولاته في الأقطار الإسلامية الخارجية، وتجواله في المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات في مختلف المناطق، يدعو إلىٰ التوحيد، وينشر العقيدة الصحيحة، ويوجِّه شباب الأمة إلىٰ منهج السلف الصالح، ويحذِّرهم من المبادئ الهدَّامة، والدعوات المضللة، ومن لم يعرفه شخصيًّا؛ فليعرفه من خلال كتبه المفيدة، وأشرطته العديدة، التي تتضمن فيض ما يحمله من علم غزير، ونفع كثير».

*** فضيلة الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد، المدرس بالمسجد النبوي - حفظه الله -:** «عرفتُ الشيخ محمد أمان بن علي الجامي طالبًا في معهد الرياض العلمي، ثم مدرِّسًا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في المرحلة الثانوية، ثم في المرحلة الجامعية، عرفته حسن العقيدة، سليم الاتجاه، وله عناية في بيان العقيدة علىٰ مذهب

السلف، والتحذير من البدع، وذلك في دروسه، ومحاضراته، وكتاباته، غفر الله له، ورحمه، وأجزل له المثوبة».

* **فضيلة الشيخ عمر بن محمد فلاته، المدرس بالمسجد النبوي، ومدير شعبة دار الحديث** رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه المؤرخ في (٨/ ٢/ ١٤١٧هـ)، فمما جاء فيه: «وبالجملة، فلقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ صادق اللَّهجة، عظيم الانتماء لمذهب أهل السنة، قوي الإرادة، داعيًا إلىٰ الله بقوله، وعمله، ولسانه، عفَّ اللسان، قوي البيان، سريع الغضب عند انتهاك حرمات الله، تتحدث عنه مجالسُهُ في المسجد النبوي الشريف التي أدَّاها وقام بها، وتآليفه التي نشرها، ورحلاته التي قام بها، ولقد رافقته في السفر؛ فكان نعم الصديق، ورافق هو فضيلة الشيخ العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ - صاحب أضواء البيان وغيره - فكان له أيضًا نعم الرفيق. والسفر هو الذي يُظهر الرجالَ علىٰ حقيقتهم.

لا يجامل، ولا ينافق، ولا يماري، ولا يجادل، إن كان معه الدليل صدع به، وإن ظهر له خلاف ما هو عليه قال به، ورجع إليه، وهذا هو دأب المؤمنين؛ كما قال الله تعالىٰ في كتابه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٥١] الآية، وأُشهدُ الله تعالىٰ أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد أدىٰ كثيرًا مما عليه من خدمة الدين، ونشر سُنَّة سيد المرسلين، ولقد صادف كثيرًا من الأذىٰ، وكثيرًا من الكيد والمكر؛ فلم ينثن، ولم يفزع؛ حتىٰ لقي الله، وكان آخر كلامه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

❁ ❁ ❁

فصلٌ في ذكر بعض مؤلفاته

منها كتاب: «الصفات الإلهية، في الكتاب والسنة النبوية، في ضوء الإثبات والتنزيه» وهو من أنفع كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكتاب: «أضواء علىٰ طريق الدعوة إلىٰ الإسلام» ويحتوي هذا الكتاب علىٰ عدة

محاضرات، فيها تقريرُ العقيدة السلفية، وعرضٌ للدعوة في إفريقيا، وذكرٌ لمشاكل الدعوة والدعاة في العصر الحديث، مع الحلول المناسبة لتلك المشاكل، ورد علىٰ الصوفية.

وكتاب: «مجموع رسائل الجامي في العقيدة والسنة».

ورسالة بعنوان: «المحاضرة الدفاعية عن السنة المحمدية» وهي في الأصل محاضرة ألقاها في السودان سنة (١٣٨٣هـ) وردَّ فيها علىٰ الملحد: محمود طه.

ورسالة بعنوان: «حقيقة الديمقراطية، وأنها ليست من الإسلام» وهي في الأصل محاضرة ألقاها سنة (١٤١٢هـ).

ورسالة بعنوان: «حقيقة الشورىٰ في الإسلام».

ورسالة بعنوان: «العقيدة الإسلامية وتاريخها».

❁ ❁ ❁

فصل في ذكر بعض تلاميذه

رجلٌ هذه مكانته عند ذوي العلم، وهذه جهوده في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وحبه لهذه العقيدة السلفية الخالدة، التي أوذي في سبيل نشرها وتقريرها في نفوس المسلمين، سواء في داخل المملكة أو خارجها، يصعُبُ حصر طلبته، وتلاميذه، وكان من أبرز طلبته كل من:

فضيلة شيخنا العلامة الدكتور/ ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله - وفضيلة شيخنا العلَّامة/ زيد بن هادي المدخلي - حفظه الله -، وفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ علي بن ناصر فقيهي، المدرس بالجامعة الإسلامية، والمدرس بالمسجد النبوي - حفظه الله - وغيرهم.

بعض أخلاقه الفاضلة

١- **نصحه:** كان رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا - فيما نحسب - لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، ويظهر ذلك بأدنىٰ تأمل، فقد نذر حياته في تقرير عقيدة السلف الصالح، وذلك من خلال دروسه، وتآليفه، ومحاضراته، وردوده علىٰ المخالفين للكتاب والسنة، وكان عادلًا في رده علىٰ المخالف، مجانبًا للعصبية والهوىٰ.

٢- **قلة مخالطته للناس:** كان رَحِمَهُ اللَّهُ معروفًا بقلة مخالطته للناس إلا في الخير، فأغلب أوقاته وأيامه محفوظة، وطريقته في ذلك معروفة، إذ يخرج من البيت إلىٰ العمل بالجامعة، ثم يعود إلىٰ البيت، ثم إلىٰ المسجد النبوي الشريف؛ لإلقاء دروسه بعد العصر، وبعد المغرب، وبعد العشاء، وبعد الفجر، وهكذا، إلىٰ أن لازم الفراش بسبب اشتداد المرض.

٣- **عِفة لسانه:** كان رَحِمَهُ اللَّهُ عف اللسان، لا يلمز، ولا يطعن، ولا يغتاب، بل ولا يسمح لأحد أن يغتاب أحدًا بحضرته، ولا يسمح بنقل الكلام وعيوب الناس إليه، وإذا وقع بعض طلبة العلم في خطإ طلب الشريط، أو الكتاب، فيسمع أو يقرأ، فإذا ظهر له أنه خطأ؛ قام بما يجب علىٰ مثله من النصيحة.

٤- **عفوه وحلمه:** فبقدر ما واجه من الأذىٰ، والمحن، والكيد، والمكر، قابل من أساء إليه بالحلم والعفو، وقد كان يأتيه بعض من كان ينال من عرضه بالسب، أو الطعن، أو الافتراء، فيستسمح منه؛ فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرجو الله تعالىٰ ألا يُدخِل أحدًا النار بسببي»، ويسامح من يتكلم في عرضه، ويقول: «لا داعي لأن يأتي من يعتذر، فإني قد عفوت عن الجميع»، ويطلب من جلسائه إبلاغ ذلك عنه.

٥- **عنايته وتعهده بطلبته:** فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ من الذين يولون طلابهم عناية خاصة لا

تنتهي بانتهاء الدرس، بل كان يحضر مناسباتهم، ويسأل عن أحوالهم، ويعالج بعض مشاكلهم الأسرية، وبالجملة؛ فلقد كان يبذل ماله، وجاهه، ووقته؛ لمساعدة المحتاج منهم، وكان هذا التصرف منه يترك أثرًا بالغًا عند طلابه، فرُزق بسبب ذلك المحبة الصادقة منهم، وقد شعروا بعد موته بفراغ في هذه الناحية.

والحق: إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ اجتمعت فيه خصالُ خيرٍ كثيرة، وما تم نقله آنفًا عن أهل العلم كافٍ، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

فصلٌ في عقيدته السلفية

مما يدل علىٰ عقيدة الشيخ السلفية: أنه كان يدرِّس كتب العقيدة السلفية، مثل: «الواسطية»، و«الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ»، و«التدمرية»، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز، و«الإيمان»، و«ثلاثة الأصول»، و«فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، و«قرة عيون الموحدين»، و«الأصول الستة»، و«الواجبات المتحتمات»، و«القواعد المثلىٰ»، و«تجريد التوحيد المفيد» للمقريزي.

وردُّه علىٰ أهل البدع؛ كالأشاعرة، والصوفية، والشيعة الروافض، وذلك في كتبه، ومقالاته، في المجلات العلمية، وفي محاضراته، ودروسه، فعلىٰ سبيل المثال؛ كتابه: «أضواء علىٰ طريق الدعوة إلىٰ الإسلام» يدل علىٰ ذلك دلالة واضحة، وأضف إلىٰ ذلك شهادة أهل العلم له بذلك؛ كما تقدم النقل عنهم.

مرضه وموته:

لقد ابتلي في آخر عمره – رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة – بمرضٍ عُضال؛ حتىٰ ألزمه الفراش نحو عام، فصبر واحتسب، وفي صبيحة يوم الأربعاء، السادس والعشرين من شهر شعبان، سنة (١٤١٦هـ) أسلم روحه لبارئها، فصُلِّي عليه بعد الظهر، ودُفن في

بقيع الغرقد، بالمدينة النبوية.

وشهد دفنه جمعٌ كبير من العلماء، والقضاة، وطلبة العلم، وغيرهم، وبموته حصل نقص في العلماء العاملين.

فنسأل الله تعالىٰ أن يغفر له، ويرحمه، ويخلف علىٰ المسلمين عددًا من العلماء العاملين، آمين.



فصل في أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ، وعلىٰ حسب كماله، وقوته، وزيادته؛ يكونُ انشراحُ صدر صاحبه، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهُدىٰ والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضِيقِ الصَّدرِ وانحراجِه، ومنها: النورُ الذي يقذِفُهُ الله في قلب العبد، وهو نورُ الإيمان، فإنه يشرَحُ الصدر، ويُوسِّعه، ويُفْرِحُ القلبَ، فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد، ضاقَ، وحَرِجَ، وصار في أضيقِ سجنٍ، وأصعبه.

وقد روىٰ الترمذي في «جامعه»، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إذا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ؛ انْفَسَحَ وانْشَرَحَ**». قالوا: ومَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: «**الإنَابَةُ إلىٰ دارِ الخُلُودِ، والتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزوله**»[1] فيُصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النورُ الحِسِّي، والظلمةُ الحِسيَّة، هذه تشرحُ الصدر، وهذه تُضيِّقه.

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه؛ حتىٰ يكون أوسعَ من الدنيا، والجهلُ يورثه الضِّيق، والحَصْر، والحبس، فكلما اتَّسع علمُ العبد؛ انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل عِلم، بل للعلم الموروث عن الرسول، وهو العلمُ النافع، فأهلُه أشرحُ الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنُهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا.

---
(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

ومنها: الإنابة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ومحبتُه بكلِّ القلب، والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك؛ حتىٰ إنه ليقولُ أحيانًا: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة؛ فإني إذًا في عيش طيب.

وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وطيبِ النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حِسٌّ به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوىٰ وأشدَّ؛ كان الصدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هذا الشأن، فرؤيتهُم قَذَىٰ عينه، ومخالطتهُم حُمَّىٰ روحه.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ، وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره، ومحبةُ سواه، فإن من أحبَّ شيئًا غيرَ الله؛ عُذِّب به، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقىٰ منه. ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا.

فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح، وغِذاؤها، ودواؤُها؛ بل حياتُها، وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوىٰ الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذاب الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: داومُ ذِكره علىٰ كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه، وحبسه، وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلىٰ الخلق، ونفعُهم بما يمكنه؛ من المال، والجاهِ، والنفع بالبدنِ، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعمهُم

قلبًا، والبخيلُ - الذي ليس فيه إحسان - أضيقُ الناس صدرًا، وأنكدُهم عيشًا، وأعظمُهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول الله ﷺ في «الصحيح» مثلًا للبخيل والمتصدِّق: «كمَثَل رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ؛ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ؛ حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ، وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ؛ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ»[1]. فهذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدِّق، وانفساح قلبه، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل، وانحصارِ قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متَّسِعُ القلب، والجبانُ: أضيق الناس صدرًا، وأحصرُهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم؛ إلا مِنْ جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرَّمٌ علىٰ كل جبان؛ كما هو محرَّم علىٰ كل بخيلٍ، وعلىٰ كُلِّ مُعرِض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهلٍ به، وبأسمائه تعالىٰ، وصفاته، ودِينه، متعلق القلبِ بغيره.

وإن هذا النعيم والسرور؛ يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيقُ والحصر؛ ينقلبُ في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر؛ كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيقِ صدرِ هذا لعارض، فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها، وإنما المعوَّلُ علىٰ الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصفات المذمومة، التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء، فإن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه؛ لم يحظَ من انشراح صدره

(١) سيأتي تخريجه.

بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوِرَانِ علىٰ قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلامًا، وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصُره، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها.

فلا إله إلا اللهُ، ما أضيقَ صدرَ من ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب في كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همَّته دائرةً عليها، حائمةً حولها.

فلهذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار: ١٣]، ولِذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٤] وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا اللهُ تبارك وتعالىٰ.

والمقصود: أن رسولَ الله ﷺ كان أكملَ الخلق في كلِّ صفة يحصُل بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلق في هذا الشرح، والحياة، وقُرَّةِ العين، مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّيِّ، وأكملُ الخلق متابعة له؛ أكملُهم انشراحًا ولذة وقرة عين، وعلىٰ حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره، وقُرة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال مِن شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوِزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه، والله المستعانُ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِه إياهم، ودفاعِه عنهم، وإعزازه لهم، ونصرِه لهم؛ بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقِلٌّ ومستكثِر. فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

❊❊❊

فصل في أسباب شرح الصدور
وحصولها على الكمال له ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ، وعلىٰ حسب كماله، وقوته، وزيادته؛ يكونُ انشراحُ صدر صاحبه، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهُدىٰ والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضِيقِ الصَّدرِ وانحراجِه، ومنها: النورُ الذي يقذِفُهُ الله في قلب العبد، وهو نورُ الإيمان، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه، ويُفرِحُ القلبَ، فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد؛ ضاقَ وحَرِجَ، وصار في أضيقِ سجنٍ وأصعبه.

وقد روىٰ الترمذي في «جامعه»، عن النبي ﷺ، أنه قال: **«إذا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ، انْفَسَحَ وانْشَرَحَ»**. قالوا: ومَا عَلامَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: **«الإِنَابَةُ إلىٰ دارِ الخُلُودِ، والتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزوله»**[1]، فيُصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النورُ الحِسِّي، والظلمةُ الحِسِّية، هذه

---

(١) الحديث لم يروه الترمذي، وإنما رواه ابن جرير (٩/ ٥٤١) وابن المبارك في الزهد ص (١٠٦) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٤) وغيرهم، مرسلًا عن أبي جعفر المدائني، وأبو جعفر المدائني: هو عبد الله بن المسور. قال الذهبي في الميزان (٢/ ٥٠٤): «ليس بثقة»، قال أحمد وغيره: «أحاديثه موضوعة».

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، وفي سنده سعيد بن عبد الملك بن واقد، قال أبو حاتم (٤/ ٥٤): «يتكلمون فيه، يقال: «إنه أخذ كتبًا لمحمد بن سلمة، فحدث بها» ورأيت فيها حدَّث أكاذيب كذب» اهـ. وفيه انقطاع بين أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود وبين أبيه، فإنه لم يسمع منه.

تشرحُ الصدر، وهذه تُضيِّقه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

«فصل في أسباب شرح الصدور، وحصولها علىٰ الكمال له ﷺ».

[أعظم أسباب شرح الصدر]

فيقول: «فأعظم أسباب شرح الصدر التوحيدُ، علىٰ حسب كماله، وقوته، وزيادته؛ يكون انشراح صدر صاحبه».

التوحيد يَضْعُفُ ويقوىٰ في نفس العبد، ويزيد وينقص؛ لأن أصل التوحيد هو الإيمان بالله تعالىٰ، وإفراده بالعبادة[1]، وتوحيده في أسمائه وصفاته[2] بعد توحيده في ربوبيته[3]، والناس يتفاوتون في هذا التوحيد، وعلىٰ حسب كمال هذا التوحيد، وقوته، وزيادته؛ يكون انشراح صدر صاحبه، وهذا شيءٌ يعلمه الإنسان من نفسه[4]، زيادةُ الإيمان، ونقص الإيمان، وقوة الإيمان، وضعف الإيمان، وقوة توحيدك وضعفه، لو درس الإنسان أحوال نفسه في كلِّ لحظة يدرك [ذلك][5].

---

(١) وهذا هو توحيد الألوهية؛ وهو إفراد الله تعالىٰ في أفعال العباد.

(٢) وهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وهو ألا نسمي الله إلَّا بما سمىٰ به نفسه، أو سماه رسوله ﷺ.

(٣) وهذا هو توحيد الربوبية، وهو إفراد الله في أفعاله.

(٤) قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٠ - ٤٨١): «لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم، علمًا، ومعرفةً، وحالًا، تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيدًا: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأكملهم توحيدًا: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما، علمًا، ومعرفةً، وحالًا، ودعوةً للخلق، وجهادًا، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأُمم عليه...»اهـ.

(٥) زيادة من عندنا ليستقيم السياق.

هذه أعراض تعتري كلَّ إنسانٍ؛ لأن القوة والضعف لهما أسباب، أسباب ضعف التوحيد، ونقصان التوحيد، وضعف الإيمان، ونقصان الإيمان: المعاصي، والإعراض عن الله سبحانه وتعالىٰ.

وأسباب قوَّة الإيمان، وقوة التوحيد، وزيادة الإيمان، وزيادة التوحيد: الطاعة، والامتثال، إذا كانت الطاعة علىٰ وفقِ ما جاء به رسول الله ﷺ.

نحن نذكر مع قوَّةِ التوحيدِ وضعفِ التوحيدِ؛ قوةَ الإيمانِ وضعف الإيمان؛ لأنَّ الإيمان - تلك الحقيقة التي في النفس - حقيقتها: تعظيم الربِّ سبحانه وتعالىٰ، ومحبة الله، وتعظيم أوامره. هذه الأُمور تُنْتِجُ إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وعدم الالتفات إلىٰ سواه، وإفراده في أسمائه وصفاته، وإفراده في ربوبيته، وذلك هو الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

من شرح الله صدره للإسلام علىٰ نور من ربه سبحانه وتعالىٰ؛ فقد نوَّر الله قلبه، يعبد الله كأنه يرىٰ الله من شدة المراقبة[2]، ويُرْزَقُ الأُنس بالله تعالىٰ، فإذا اعترته أعراضٌ بشريةٌ لا بد منها؛ أحَسَّ بالوحشة، وفرَّ إلىٰ الله؛ ليخلِّصه من شر نفسه وهواه، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[3].

---

(١) [الأنعام، آية: ١٢٥].

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٠٣): وكُلَّما اشتدت هذه المراقبة؛ أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء؛ ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمةٍ واحدةٍ، وفي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» [رواه مسلم برقم (٨)] فتأمل كلَّ مقامٍ من مقامات الدين؛ وكلَّ عملٍ من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصله ومنبعه...» اهـ.

(٣) [الأنعام آية: ١٢٥]

[الهداية هدايتان]

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾؛ من يريد الله هدايته بالهدايتين:

١- هداية الإرشاد والدلالة والبيان(١).

٢- وهداية التوفيق والإلهام(٢)، يشرح صدره للإسلام، ويحب الإسلام، ويفرح بالإسلام الذي هو: الاستسلام والانقياد، يرىٰ من نفسه محبةَ الإسلام، ومحبة الالتزام، ومحبة الاستقامة.

إذا رأىٰ العبد من نفسه هذه المعاني؛ معناه: أن الله شرح صدره للإسلام، وهداه.

وهذه هداية الإرشاد والدلالة والبيان، تَتْبَعُ ذلك: هداية التوفيق والإلهام، بأن يوفقه للعمل الصالح، والإخلاص فيه، ومتابعة رسوله عليه الصلاة والسلام، إذ لا قبول للأعمال إلا بالأمرين معًا: إخلاص العمل لله تعالىٰ بحيث لا يشوبه شيءٌ من الرياء، وحبِّ الشهرة، والظهور، والبروز، ولكنْ يريد وجْهَ الله وحده، ويكون ذلك العمل وفق ما جاء به رسول الله ﷺ يوفقه إلىٰ ذلك(٣).

---

(١) وهذه الهداية لا تستلزم الهدىٰ التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت آية: ١٧] فإن المعنىٰ: بينا لهم.

والهدىٰ بهذا المعنىٰ عام لجميع الناس، ولهذا يوصف به القرآن؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء آية: ٩] ويوصف به الرسول ﷺ؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

ويوصف به الدعاة إلىٰ الحق، ومن ذلك قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «... **لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النعم**» متفق عليه.

(٢) وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهذه خاصة بمن يشاء الله هدايته.

انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٣) ط. الباز، و«شرح الواسطية» ص (٦٣) للهراس، و«القول المفيد» (١/ ١٣٨) لابن عثيمين.

(٣) قال ابن تيمية رحمه الله في «الاستقامة» (٢/ ٣٠٩): «والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالىٰ أنه من أخلص =

[خذلان الله للعبد]

أما من يريد أن يضلَّهُ، وأمسك عنه التوفيق، وخذله، ولم يُعِنْهُ علىٰ نفسه وشيطانه؛ يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء.

يرىٰ في امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات؛ صعوبة شديدة، لا يرىٰ من نفسه الانشراح؛ ليمتثل، ويعمل، وينتهي عما نُهي عنه، بل يرىٰ هذه قيودًا صعبةً، تقيد وتقضي علىٰ حريته وإنسانيته، يريد أن ينطلق هذا هو الضياع، فإذا رأىٰ الإنسان من نفسه هذا المعنىٰ، ووقف هذا الموقف؛ فعليه أن يبادر بالفرار إلىٰ الله؛ ليخلِّصه، وإن وفقه الله سبحانه في هذه الظروف إلىٰ الفرار إليه؛ وفقه توفيقًا.

وإن لم يوفقه ضَلَّ وضاعَ، هكذا سَبَقَ في علم الله سبحانه وتعالىٰ، ومكتوب عنده من يوفق، ويُلْهَم، ويعمل، ويشرح صدره للإسلام، ويحب الإسلام وأهل الإسلام، ومن هو بالعكس، كلُّ ذلك سابق في علم الله تعالىٰ وكتابه السابق، بيد أننا لا نعلم هذا السر ونحن مطالبون بظاهر الشريعة. علينا أن نطلب من الله سبحانه الهداية في كلِّ لحظة، إذ قد يكون من الأسباب لأن يُخَلِّص الله عبده مما تورط فيه، الإكثار من الدعاء، واللجوء إلىٰ الله؛ كما سيأتي في أسباب انشراح الصدر.

❋ ❋ ❋

[الهُدَىٰ والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر]

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالهُدىٰ والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر».

=

قصده لله – وكان محسنًا في عمله – فإنه مستحق للثواب، سالم من العقاب، ولهذا كان أئمة السلف – رحمهم الله – يجمعون هذين الأصلين؛ كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه فقيل له: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ إن العمل إذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا؛ لم يقبل، وإذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا؛ لم يقبل؛ حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة ...» اهـ.

الهدىٰ الذي هو ضد الضلالة، الذي هو صحة المتابعة، الهدىٰ ضد الضلال، والتوحيد ضد الشرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، انشرح صدره إذا وفقه الله، فوحد الله في عبادته، في ربوبيته، توحيد الربوبية الذي هو توحيد الفطرة والعقل، وجاء الشرع مؤيدًا لذلك، ثم أتبع ذلك بتوحيد العبادة.

توحيد الربوبية وحده لا يجدي، ولا ينفع، ولو وحَّدَ الإنسانُ ربَّ العالمين، بأنه وحده هو الخالق، الرازق، وهو المعطي، المانع، النافع، الضار، وهو القادر علىٰ اختراع كلِّ شيء، لا شريك له في كلِّ ذلك، لو وحده هذا التوحيدَ، ولكن لم يوحده في عبادته، يدعو معه غيره، ويستغيث بغيره، ويخاف خوفًا غير طبيعي من غيره، ويحب غيره محبةً غيرَ طبيعية، ويساوي بينه وبين عبدٍ من عباده في علم الغيب، والتصرف في الكون، ووحد الله في ربوبيته - علىٰ ما ذكرنا - ولكنْ تورط في هذه الأنواع، أنواع الشرك الأكبر؛ ما نفعه ذلك التوحيد أبدًا، بل لا يدخل بذلك التوحيد في الإسلام، فضلًا عن أن يكون من أولياء الله تعالىٰ؛ لأن ذلك التوحيد - توحيد الربوبية - لم يجهله أبو جهل نفسه.

أبو جهل وأمثاله يوحدون الله في ربوبيته، وإنما حُكِمَ عليهم بالشرك، والكفر، واستُحِلَّت أموالُهم، ودماؤهم؛ لأنهم لم يوحدوا الله في عبادته، أشركوا بالله في العبادة.

وهذا شيء يجب أن يعلمه كبار طلبة العلم قبل صغار طلبة العلم، بل جميع المسلمين يجب أن يعلموا [أنه] لا بد من الجمع بين التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة.

إذا تمَّ للمرءِ هذا التوحيدُ، ثم حصل له الهُدىٰ - اتباع هدي رسول الله ﷺ بذلك - يحصل له انشراح صدره أعظم انشراح.

[من أعظم أسباب ضيق الصدر: الشرك بالله]

والشرك - كما مثَّلنا -، والضلال - كما أشرنا -؛ من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

من علَّق قلبه بغير الله تعالىٰ، يخاف من هذا[١]، ويحذر من ذاك، ويرجو زيدًا، ويخاف عمرًا، ويحلف بخالد، وهكذا، مُوَزَّعٌ بين عباد الله، يخاف من الجن والإنس، لا يوحد الله بالمحبة، والرغبة، والرهبة[٢]، وَيتَّبعُ كلَّ ما سمع، لا يبحث عن هدي رسول الله ﷺ ليتَّبِعَه في صلاته، في جميع عباداته، لا يتقيد بالهدي النبوي.

من ابْتُلِيَ بهذا الداء أُصيب بأعظمِ أسباب ضيق الصدر وانحراجه، دائمًا هو في حرج، في ضيق؛ لأن محبته موزعة، وخوفه موزَّع واتباعه موزع، لم يوحد اتجاهه في سيره إلىٰ الله؛ لذلك فهو دائمًا في ضيق، وفي حرج، فنسأل الله لنا ولكم السلامة.

❁ ❁ ❁

[نور الإيمان من أعظم أسباب انشراح الصدر]

ويقول العلامة ابن القيم: «ومنها: - (من أسباب انشراح الصدر) - النور الذي يقذفه الله سبحانه وتعالىٰ في قلب العبد، هذا النور نور الإيمان»[٣].

هذا النور إنما يحصل إذا قوي الإيمان، الإيمان له نور، وله طعم، وله لذة، يتذوَّق الإنسانُ طعمَ الإيمانِ، ويجد في نفسه لذة الإيمان[٤]، ويُنَوَّر قلبه بنور الإيمان، كلُّ ذلك

---

(١) يعني: الخوف غير الطبيعي؛ كما تقدم.

(٢) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الأصول الثلاثة» ص (٥٢): «الرغبة في الخير، والرهبة في الشر؛ لا ترغب إلا في الله، ولا ترهب إلا من الله» اهـ.

(٣) في «زاد المعاد» (٢/ ٢٤): «ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان...»

(٤) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٣٣٥ - ٣٣٦): فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه، وذوق =

إذا صح إيمانه، لا الإيمان المُدَّعىٰ، بل الإيمان الحقيقي، الذي عَلِمَ الله منه إيمانه، وهذه الأمور بالنسبة لنا؛ نحن نحكي، ولكن ابن القيم يتحدث حديث إنسانٍ مُجَدِّبٍ، يحس هذا المعنىٰ في نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فإنه يشرح الصدر هذا النور، ويوسعه، ويرىٰ الدنيا عنده ليست بشيءٍ، لا يرىٰ زخارف الدنيا، ونعيمها، وعذابها، ومشاكلها، كلُّ ذلك لا يراه شيئًا؛ لأنه ارتبط بنور الإيمان، وهذا النور يربطه بالله سبحانه وتعالىٰ.

«فإنه يشرح الصدر، ويوسعه، ويفرح القلب».

دائمًا فيما بينه وبين الله في فرح وسرور، وإن كان فيما يبدو للناس هو في ضيق، قد يكون في فقر، في ضيق، وفي تسلط الأعداء عليه؛ كما هو حاصل في كثير من المصلحين، من الأنبياء، وورثة الأنبياء، كثيرًا ما يمتحنهم الله سبحانه وتعالىٰ، بأن يسلِّط عليهم أعداءهم، لكن في الوقت نفسه يرون في أنفسهم محبةً لله وسرورًا[1].

=

طعم الإيمان؛ أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد، وهذا الذوق أصحابه فيه يتفاوتون، فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلىٰ الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له، مخلصين له الدين، لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إيَّاه، ولا يخافون إلا إيَّاه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوىٰ، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم.

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «شفاء العليل» (١/ ١٠٧): ... فالمؤمن منشرح الصدر، منفسحه في هذه الدار علىٰ ما ناله من مكروهها، وإذا قوي الإيمان، وخالطت بشاشته القلوب؛ كان علىٰ مكارهها أشرح صدرًا منه علىٰ شهواتها ومحابها، فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير؛ كحال من خرج من سجن ضيِّقٍ إلىٰ فضاءٍ واسعٍ موافقٍ له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأىٰ من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما

=

[حال ابن تيمية أيام سجنه، ونفيه، وتعذيبه]

لذا يحكىٰ عن شيخه العلامة الإمام ابن تيمية[١]: عندما كان يُعَذَّبُ وينفىٰ ويسجن[٢] يقول: «جنتي في صدري، ماذا يعمل أعدائي؟ نفيي سياحة، وسجني خَلْوَة، وقتلي شهادة»[٣].

وهل يعمل الأعداء أكثر من هذا؟!

القسمة ثلاثية، ليس هناك شيءٌ آخر: إما أن يُنفىٰ، وإما أن يسجن، وإما أن يقتل.

=

قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية فهو أصل كلِّ نعمة، وأساس كل خير» اهـ.

(١) هو ابن تيمية الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام عَلَمُ الزهاد نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، مات سنة [٧٢٨ هـ] «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٩٢) برقم (١١٧٥) «الدرر الكامنة» (١/ ٨٨) برقم (٤٠٩).

(٢) **قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٩٢)**: وقد امتُحِنَ وأُوذِيَ مراتٍ، وحُبِسَ بقلعة مصر، والقاهرة، والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وبها توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة في قاعة معتقلًا، ثم جُهِّزَ، وأُخْرِجَ إلىٰ جامع البلد فشهده أُمم لا يحصون، فَحُزِروا بستين ألفًا ...» اهـ.

(٣) **قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «الوابل الصيِّب» ص (١٠٩)**: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، وما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا... وعَلِمَ الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها؛ ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها» اهـ.

وفي الحالات كلِّها فهو في جنته، يقول هو أو غيره من أصحاب التحقيق[(١)]: «ولا يدخل العبد جنة الآخرة؛ حتىٰ يدخل جنة الدنيا»، أي: حتىٰ يجد لذةً في طاعة الله، وعبادته، والأُنس به، وانشراح صدره، وتتحول جميع المشاق عنده كأنها لا شيء، يرىٰ نفسه كأنه في جنة وهو في الدنيا، وبعد ذلك يدخل جنة الآخرة.

❋ ❋ ❋

[ذهاب نور الإيمان من القلب من أسباب ضيقه وحرجه]

يقول العلامة ابن القيم: «فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ضاق، وحَرِجَ، وصار في أضيق سجنٍ، وأصعبه».

قد يكون - فيما يبدو للناس - في نعيم، في راحةٍ، لكن فيما بينه وبين الله إذا فقد ذلك النور ضاق صدره، وهذه المعاني كلها فيما بين العبد وبين الرب، وأما ما يحصل للإنسان من مُتَع الدنيا فهذه المُتَعُ قد يحصل منها لأعداءِ الله الكفار ما لا يحصل لأولياءِ الله تعالىٰ، أي: ليست هي المعيار.

التَّنَعُّمُ بنعيم الدنيا، وأن يعيش الإنسان في بحبوحة من العيش، وفي سَعةٍ من الحياة، أو في ضيق؛ كلُّ ذلك ليس بمعيار، وليس هو محل الحديث، وإنما القضية قضيةٌ خاصة بين العبد وبين ربِّه سبحانه وتعالىٰ.

❋ ❋ ❋

[الإنابة إلى دار الخلود]

وقد روىٰ الترمذي في «جامعه» مرفوعًا: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» يعرف ذلك الإنسان من نفسه، وقد يعرف ذلك غيره بالقرائن، وبتصرفات هذا العبد،

---

(١) هو ابن تيمية كما تقدم.

قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟

قال: «**الإنابة إلىٰ دار الخلود**» هذه العلامة التي يُعْرَفُ بها الإنسان؛ إذا رأيت الإنسان ذا إنابةٍ، وتوجُّه، وإكثارٍ من التوبة، وإقبالٍ علىٰ الله، «**والتجافي عن دار الغرور**» وأن مُتَعَ الحياة لا تضرُّه؛ لأنَّها دار الغرور، يأخذ منها زادًا لآخرته، ما يحصل له من متاع الدُّنيا يستعمله زادًا لآخرته، لا ينخدع بها، لا تشغله عن عبادة الله، وعن طاعة ربه سبحانه[1]، وعن اتِّباع نبيه عليه الصلاة والسلام، والاستعداد للموت قبل نزوله، كيف يستعد الإنسان للموت؟ الاستعداد للموت - أكثر أهل العلم ذكروا الاستعداد للموت في مؤلفاتهم وفي كتبهم - ذلك بالتوبة، والإنابة، والإكثار من مراجعة صفحات أعمالك الماضية: ماذا عملت؟ والإقبال علىٰ الله، وانكسار القلب، والحزن؛ لأنك لا تدري بم يختم لك، ترزق الخوف مع السرور والانشراح.

❁ ❁ ❁

[جمع العبد بين الخوف والرجاء]

لابد أن يجمع العبد بين الخوف وبين الرجاء، لا يغلب عليه الخوف؛ حتىٰ يصل إلىٰ درجة القنوط، واليأس، ولا يغلب عليه الرجاء؛ حتىٰ يركبه الغرور[2]، ولكنه يسير

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مدارج السالكين» (٢/ ٩): «والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولىٰ بالإيثار...» اهـ.

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٢٢): «ولهذا قال بعض السلف: مَنْ عَبَدَ اللهَ تعالىٰ بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن، وقد جمع الله تعالىٰ هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلىٰ التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه...» اهـ.

إلىٰ الله بين الخوف والرجاء، يلازم هذه الخطة وهذا الطريق، بهذا يستعد للموت.

❁ ❁ ❁

[بقدر ما في القلب من نور يكون انشراحه]

يقول العلامة ابن القيم: «فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور».

وكما تقدم، الناس تتفاوت في قوَّة الإيمان وضعف الإيمان، وذلك حسب قوة هذا النور وضعف هذا النور، هذا أمر معنويٌّ يدركه الإنسان من نفسه، ويدركه غيره بالعلامات التي ذكرها، وجاء ذكرها في الحديث.

وكذلك «النور الحسِّي» يريد أن يضرب المَثَل[1] لذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه، إذا كنت في مكان مُنوّر كهذا المكان[2]، وأنت بحاجة إلىٰ النور؛ لتقرأ؛ لتستفيد؛ ينشرح صدرك بهذا النور الكهربائي الحسي، وإذا كنت في غرفة مظلمة يضيق صدرك، كذلك النور المعنوي بالنسبة للإنسان، من رُزِقَ نورَ الإيمان انشرح صدره، وفرح، ورُزِق السرور بالله سبحانه وتعالىٰ، وبطاعته، والعكس بالعكس[3].

---

(١) يعني: ابن القيم؛ لأنه قال: وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية؛ هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

(٢) وهو المسجد النبوي.

(٣) **قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الوابل الصيِّب» ص (١٠٩) في معرض كلامه عن الإحسان:** فالإحسان له جزاء مُعَجَّل ولا بدَّ، والإساءة لها جزاءٌ معجل ولا بدَّ، ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسنين من انشراح صدورهم في انفساح قلوبهم، وسرورهم، ولذتهم بمعاملة ربهم عَزَّ وَجَلَّ وطاعته وذكره، ونعيم أرواحهم بمحبته؛ لكفىٰ، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالىٰ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتَشتُّتِه وظلمته وحزازاته وهَمِّه وغمِّهِ وحُزْنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنىٰ حس وحياة يرتاب فيه، بل الهموم والغموم والضيق والأحزان عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، =

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه؛ حتىٰ يكون أوسعَ من الدنيا، والجهلُ يورثه الضِّيق، والحَصْر، والحبس، فكلما اتَّسع علمُ العبد؛ انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل عِلم، بل للعلم الموروث عن الرسول، وهو العلمُ النافع، فأهلُه أشرحُ الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنُهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا.

ومنها:الإنابة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ومحبتُه بكلِّ القلب، والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك، حتىٰ إنه ليقولُ أحيانًا، إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب، وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وطيبِ النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حِسٌّ به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوىٰ وأشدَّ، كان الصدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هذا الشأن، فرؤيتهُم قَذَىٰ عينه، ومخالطتُهُم حُمَّىٰ روحه.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ، وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره، ومحبةُ سواه، فإن من أحبَّ شيئًا غيرَ الله؛ عُذِّب به، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقىٰ منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا.

فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح وغِذاؤها ودواؤُها، بل حياتُها، وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوىٰ الميل، والإرادة، والمحبة؛ كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذاب الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ

=

وجهنم حاضر، والإقبال علىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه والرضا به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللَّهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل، وجنة حاضرة، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة ...» اهـ.

الألم، والنكد، والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: داومُ ذِكره علىٰ كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه، وحبسه، وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلىٰ الخلق، ونفعُهم بما يمكنه من المال، والجاهِ، والنفع بالبدنِ، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعمُهُم قلبًا، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان؛ أضيقُ الناس صدرًا، وأنكدُهم عيشًا، وأعظمُهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول الله ﷺ في «الصحيح» مثلًا للبخيل والمتصدِّق: «كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وكُلَمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ؛ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ»[1]. فهذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدِّق وانفساح قلبه، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع: منشرح الصدر، واسع البطان، متَّسِعُ القلب، والجبانُ: أضيق الناس صدرًا، وأحصرُهم قلبًا، لا فرحة له، ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا مِنْ جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرَّمٌ علىٰ كل جبان؛ كما هو محرَّم علىٰ كل بخيلٍ، وعلىٰ كُلِّ مُعرِض

---

(١) والحديث رواه البخاري برقم (٢٩١٧)، ومسلم برقم (١٠٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله ﷺ مَثَلَ البخيل والمتصدق؛ كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، قد اضطُرَّت أيديهما إلىٰ ثُدِيِّهما وتراقيهما، فجعل المتصدِّق كلَّما تصدق بصدقة انبسطت عنه؛ حتىٰ تُغشِّيَ أنامله وتعفوَ أثره، وجعل البخيل كلما همَّ بصدقة قلصت، وأخذت كلُّ حَلْقةٍ مكانها».

قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإِصْبَعِهِ في جبته، فلو رأيته يوسعها ولا توسع.

عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهلٍ به، وبأسمائه تعالىٰ، وصفاته، ودِينه، متعلق القلبِ بغيره، وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيقُ والحصر ينقلبُ في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر؛ كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيقِ صدرِ هذا لعارض، فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها، وإنما المعوَّلُ علىٰ الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان.

❊ ❊ ❊

[العلم من أسباب انشراح الصدر]

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها: من أسباب انشراح الصدر: العلم»، «أل» في «العلم» للعهد، العلم المعهود المعروف، وهو العلم النافع الموروث من رسول الله ﷺ، فإنه يشرح الصدر ويوسعه؛ حتىٰ يكون أوسع من الدنيا؛ لأنه علىٰ بصيرة في دينه، علىٰ بصيرة في سَيْرِهِ إلىٰ الله، لا يتخبط في سيره إلىٰ الله، وفي عبادته، وطاعته، وفي معاملاته لإخوانه المسلمين، وغير المسلمين؛ لذلك يقول: «حتىٰ يكون أوسع من الدنيا»؛ لأنه يعلم كيف يعيش في هذه الدنيا، كيف يعامل ربَّ العالمين، وكيف يعامل أولياءَه، وكيف يعامل أعداءَه. يعلم كلَّ شيءٍ يحتاج إليه.

❊ ❊ ❊

[الجهل من أسباب ضيق الصدر]

«والجهل يورثه الضيق والحصر[1] والحبس»، الجاهل لا يعرف ما يجب لله، لا يعرف حَقَّ الله، لا يعرف حَقَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، لا يعرف حق

---

(١) قال الفيومي في «المصباح المنير» ص (٨٦): «وحصر الصدر حصرًا من باب تعب ضاق»اهـ.

عباد الله. قد يعطي ويصرف لعباد الله محض حق الله تعالىٰ؛ لجهله.

الجاهل الذي يجهل الضروريات من الدين. العلم الضروري الذي لا يسع مسلمًا أو مسلمة أن يجهله. هذا يكون في ضيق، وفي حرج، في حبسٍ، لا يعرف حتىٰ ما يصلحه هو. لا يصلح العبدَ شيءٌ مثل معرفته لربِّه(١)، الجاهل لا يعرف ربه. الجاهل يتبع كلَّ ناعق، إذا قال له قائل: الله في صدري - كما يقول بعض شيوخ الطرق - يصدق.

إذا قال له قائل: الله في كل مكان يصدق.

إذا قال القائل: هذه السموات هذه الأجرام هي الله يصدق، الجاهل الذي لا يعرف ربه حَقَّ المعرفة، ولا يعرف نبيه حَقَّ المعرفة(٢) وما جاء به رسول الله ﷺ المعرفة

---

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه «الأُصول الثلاثة» ص (٢١) عند قول المؤلف «العلم هو معرفة الله»: والمراد بالعلم هنا هو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة الله بآلائه ونعمائه ومعرفة الله بالآيات المتلوَّة والآيات الكونية معرفةً توجب محبته سبحانه وتعالىٰ، معرفةً توجب خشيته وتعظيمه وتعظيم أمره وتعظيم شرعه، توجب مراقبته تعالىٰ وخشيته. وفي النهاية المحبة؛ لأن محبة الله تعالىٰ هي روح الإيمان، وإيمان المرء إذا خلا من محبة الله تعالىٰ كالجسد الميت.

ومعنىٰ معرفة الله ليست معرفة بالدعوىٰ فقط، بل معرفة بهذه المعاني كلها وأكثر منها، ويدخل في ذلك توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات. كل ذلك، وتصديق خبر الرب سبحانه وتعالىٰ؛ ليدخل في ذلك الإيمان بالكتب السماوية، والجنة والنار، وغير ذلك من الأمور الغيبية، التي يجب الإيمان بها: كل ذلك داخل في معرفة الله» اهـ.

(٢) قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لـ «الأُصول الثلاثة» ص (٢١ - ٢٢) عند قول المؤلف: «ومعرفة نبيِّه»: ومعرفة نبيه معرفة تبعثك علىٰ تصديق كل ما أخبر به معرفة توجب طاعته، وتصديق خبره، واتباع هديه، وتجريد المتابعة له، بحيث لا تعارض قوله ﷺ بقول أحدٍ، والذين يعارضون قول رسول الله ﷺ بآراء الرجال، وربما يقدِّمون آراء الرجال علىٰ سنة رسوله ﷺ؛ لم يعرفوا نبي الله حق المعرفة؛ لأنه من عرف بأنه رسول يطاع ولا يعصىٰ، وعبدٌ لا يعبد، ونبي لا يكذَّب؛ لا يمكن أن يعارض أقواله وسنته وهديه بأقوال الرجال وآرائهم ... وذلك دليل علىٰ عدم معرفتهم برسول الله ﷺ حق المعرفة، ومعرفته المعرفة الشخصية ومحبته المحبة الذاتية دون المحبة الشرعية الرسالية لا تفيد، وهذا شيءٌ يعلمه كلُّ مسلم وإلا فإن بعض الكفار والمشركين كانوا يعرفون أمانته وصدقه، كانوا يعرفون =

الواجبة؛ في ضيق، ليس بعده ضيق، وفي حرج، وفي حبس؛ لذلك ننصح إخواننا المسلمين أن يتعلموا العلم الضروري.

❁ ❁ ❁

[العلم الذي لا يسع المسلمَ جهلُه]

العلم علمان:

١- علم ضروري لا يسع مسلمًا جهلُهُ؛ لذلك عندما بدأ شيخ الإسلام المصلح المجدد[1] أَلَّف للناس رسالةً صغيرة كانوا يُحَفِّظونها حتىٰ العوام، يحفظونها في مساجدهم، والأطفال في بيوتهم؛ لأن هذه الرسالة التي تسمَّىٰ «الأُصول الثلاثة»[2] مشتملة علىٰ العلم الضروري الذي لا يسع مسلمًا جهله؛ لذلك علىٰ طلاب العلم، وعلىٰ المصلحين المنتشرين في العالم للإصلاح أن يبدءوا في تربية الناس بصغار العلم، بأن يعرفوهم ربَّ العالمين، ودينه، ونبيه، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وأركان الصلاة، ومعنىٰ «لا إله إلا الله»، و«نواقض الإسلام».

هذه الأمور لا يسع مسلمًا جهلها. من جهل هذه الأمور فإسلامه علىٰ خطر، إسلام تقليديٌّ، إيمانه إيمان تقليديٌّ، لا يجدي، ولا ينفع؛ لذلك فهو في ضيق، وفي حبس. نسأل الله أن يرزقنا علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا مقبولًا عنده سبحانه.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس».

=

هو رسول الله وكانوا يقدرونه غاية التقدير، ولكنهم لم يتبعوه، ولم يحبوه محبة شرعية؛ لذلك لم ينفعهم ذلك الموقف؛ كأبي طالب كما نعلم. ومعرفة النبي ﷺ ليس بالأمر الهيِّن، ثم محبته شعبة من شعب الإيمان ...» اهـ.

(١) هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن وهب بن تميم. مات سنة (١٢٠٦ هـ) «مشاهير المجددين في الإسلام» ص (٥٦).

(٢) وقد شرحها رَحِمَهُ اللَّهُ.

هذا شيء ملموس، والجاهل يدرك ذلك من نفسه، الجاهل الذي يعلم من نفسه مثل هذا الجهل، من الغباوة بمكان عدم المبادرة بالتعلم. والتَّعلُّم في هذا الوقت أيسر من أي وقت مضىٰ.

العلم دخل عليك في بيتك بواسطة الأشرطة، والمذياع، دخلت عليك المسائل العلمية، والفتاوىٰ الإسلامية. من قَصَّر في هذا الوقت في التعليم رجالًا ونساء فهو المقصر، ليس له أدنىٰ عذر أبدًا أينما كان؛ حتىٰ المسلم الذي يعيش في غير بلاد المسلمين؛ العلم يلحقه هناك.

***

[بحسب اتساع العلم يكون انشراح الصدر]

يقول ابن القيم: «فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع» إذا تجاوز المعلومات الضرورية، ودرس، واتسعت معلوماته في «العقيدة»، في «الشريعة»، في «الأحكام»، في «المعاملات»؛ انشرح صدره واتسع؛ «وليس هذا لكلِّ علمٍ» لأن العلم بالمفهوم اللُّغوي بمعنىٰ: المعرفة؛ يشمل أيَّ علم، ولكن هذا العلم الذي هو موضوع حديثنا ليس لكلِّ علم، بل هو العلم الموروث عن رسول الله ﷺ، العلم الشرعي الذي به تعرف الله، وتعرف دين الله، وتعرف رسول الله ﷺ، وتعرف الدار الآخرة، والاستعداد لها.

وليس معنىٰ ذلك أنه لا يجوز لك أن تتعلم غير هذا العلم، لا، تعلَّم هذا العلم، وبعد ذلك تعلم أيَّ عِلْمٍ نافع لك في الدنيا والآخرة، ما لم يكن ضارًّا، وقد تكون علوم الدنيا نافعةً نفعًا خاصًّا، نفعًا مقيدًا مؤقتًا، لكن هذا العلم هو العلم النافع النفع الذي لا يُسْتَغْنَىٰ عنه أبدًا.

«فأهله أشرح الناس صدرًا».

أهل هذا العلم «أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا،

وأطيبهم عيشًا».

ثم قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: «الإنابة» الإنابة إلىٰ الله من أسباب انشراح الصدر، «ومحبته بكلِّ القلب» حتىٰ لا يكون في قلبك محبوب سواه، لا تحب أحدًا مع الله، حرام علىٰ قلب أن يجمع [محبة الله][(١)] ومحبة غيره.

❋❋❋

[المحبة محبتان]

هنا محبتان:

١- الحب في الله.
٢- والحب مع الله.

المحرم الذي لا يجوز أن تتورط فيه أن تحب مع الله، أن تجمع في قلبك مع الله محبوبًا آخر تحبه كما تحب الله، وتعظمه كما تعظم الله، وتخافه وترجوه وتراقبه، وتعتقد أنه معك في كلِّ لحظةٍ، يعلم منك كلَّ شيء، لا يوجد من يتصف بهذه الصفات غير ربِّ العالمين، ولو جعلت محبوبًا آخر شَيْخَكَ، إمَامَكَ، شَيْخَ طريقتك، جعلت له شيئًا من هذه المحبة، حَلَّ في قلبك مع الله، تعظِّمُه، وتخاف منه؛ أشركت بالله شركًا أكبر لا يُغْفَرُ إلَّا بالتوبة؛ حتىٰ تطرد ذاك المحبوبَ من قلبك؛ ليكون محبوب قلبك هو الله وحده لا شريك له، أما من يحب شيخه ورئيسه كما يحب الله، فيعظمه كما يعظم الله، وربما يعتقد فيه معرفة علم الغيب، وأنه يضره، أو ينفعه، ويحذر منه؛ مُشْرِكٌ شركًا أكبر.

وهناك محبة طبيعية، تحب ابنك، وأهلك، تحب مالك، هذه محبة طبيعية ليس فيها خضوع وتذلل، غير ضارةٍ، ليست محبة عبادة.

---

(١) كلمة غير واضحة في الشريط، والسياق يقتضي ذلك، وسيأتي في شرحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان هذه المحبة.

وهناك محبة عظيمة نافعة لك: الحب في الله، تحب أولياءَ الله، شخصًا، تعتقد فيه الصلاح والتقوىٰ والاستقامة، تحبه لا لشيءٍ آخر، بل لكونه وليًّا من أولياء الله، وعبدًا صالحًا لله، محبًّا لله، احْبَبْتَه لكونه يحب الله. هذا عملٌ صالحٌ؛ لذلك إذ تحاب اثنان في الله، واجتمعا علىٰ هذه المحبة، وافترقا عليها؛ يكونان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[1].

إذًا فَرِّقْ، باب المحبة باب عظيم، يجب أن يَدْرُسَ طلابُ العلمِ هذا الباب. الإشراك في هذا الباب شيءٌ خطير جدًّا.

لذلك قال: «ومحبته بكلِّ القلب» كما شرحنا، «والإقبال عليه» لا تُقْبِل إلَّا عليه، لا تلتفت بقلبك إلَّا إليه، «والتنعم بعبادته» وأَن تحس التنعُّمَ والراحة في عبادته، وذلك إذا وَحَّدْتَ الله، أما إذا كنت تعبد معه غيره لا تجد ذلك التَّنَعُّمَ وأنت في قلق، تخاف الله وتخاف غير الله، وربما يزيد لك شيطانك ويقول: لو قَصَّرْتَ في حق الله، الأمر هيِّن؛ لأن الله غفور رحيم، لكن لو قصرت في حق الشيخ، الشيخ لا يتسامح، لا يغفر، ولا يعفو.

لا تحسبوا هذا الكلام فيه نوع من المبالغة، هذا موقف كثير من أتباع مشايخ الطرق، الذين استولت علىٰ قلوبهم محبة شيوخهم، أين الإيمان؟ ما هذا الاعتقاد؟!

❁ ❁ ❁

[الإقبال على الله من أسباب انشراح الصدر]

«والإقبال عليه - وحده سبحانه - والتنعُّم بعبادته؛ لا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك» اسأل مجربًا، ولا تسأل طبيبًا. العلامة ابن القيم من الذين لهم ذوق خاص في هذا

---

(١) وفي ذلك حديث رواه البخاري برقم (٦٦٠)، (١٤٢٣)، (٦٨٠٦) ومسلم برقم (١٠٣١).

المعنىٰ؛ لذلك يتحدث عن معرفة، وعن إحساس، وعن تجربة، لا يتحدث حديث ناقل مثلنا، ينقل كلام الناس إلىٰ الناس.

«فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك؛ حتىٰ إنه ليقول أحيانًا: إن كنت في جنة في مثل هذه الحالة فإني إذًا في عيش طيب».

يقول ابن القيم: قد يصل العبد إلىٰ درجة أنه ليقول أحيانًا: إن كنت في جنة في مثل هذه الحالة، أي: دخل في الدنيا جنة، وحسَّ بهذه الجنة، وتَنَعَّمَ بها يقول: إن رُزِقْتُ في الآخرة جنة كهذه؛ فإني إذًا في عيش طيب.

هذا لا يقوله الذي يحكي، ولكن يقوله الذي تذوَّق .

يقول العلامة ابن القيم: «وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسٌّ به».

هذه المحبة لا تتحقق إلا بالإقبال الكامل، وعدم الانشغال بغير الله، أما من شغل نفسه بغير عبادته، بغير طاعته، بغير اتباع دينه، من شغل نفسه بأمور تافهةٍ؛ لا تحصل له مثل هذه المحبة، لا يعرف ذلك إلا من له حس بذلك.

«وكلما كانت المحبة أقوىٰ وأشد؛ كان الصدر أفسح وأشرح»؛ لذلك مع كثرة ما ابتلوا به من خصومهم وأعدائهم، من طردٍ، ونفي، وسجنٍ؛ ما كانوا يتضايقون أبدًا، الذي يدلكم علىٰ ذلك هو شيخه، لم يجدوا راحةً من أعدائهم، مع ذلك انظروا إلىٰ مؤلفاتهم، خصوصًا مؤلفات شيخه[1]، متىٰ ألَّف هذه المؤلفات التي عجزنا الآن عن استيعابها؟ وهو يسجن، وهو يطرد، وهو يُنفىٰ، متىٰ ألَّف هذه المؤلفات؟! يدخل السجن فيؤلِّف مع العبادة والخَلوة، يشتغل بالتأليف والتعليم، يُطرد إلىٰ الإسكندرية، إلىٰ القاهرة، يتربع علىٰ كرسيٍّ في مسجد من المساجد فيدرِّس، لا يشغله الطرد، ولا

(١) هو ابن تيمية، تقدمت ترجمته.

يشغله النفي عن التَّعَلُّم، والتعليم، والاشتغال بطاعة اللهِ، لأنه لا يحس هذا الذي يحسه أحدنا عندما يحصل له أيُّ شيءٍ، أو أيُّ ابتلاءٍ، يضيق صدره، ويُقَصِّرُ في أداء الواجبات، وتعليم عباد الله، أمَّا هم؛ لا.

هذا دليل علىٰ أنهم وصلوا إلىٰ أن حسوا هذا الذي يتحدثون عنه.

❁ ❁ ❁

[رؤيةُ مَنْ لا يُحَبُّ من أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ]

يقول ابن القيم: «... وكلما كانت المحبة أقوىٰ وأشد؛ كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذىٰ عينه، ومخالطتهم حُمَّىٰ روحه».

عندما يختلط بالبطالين أصحاب البطالة، المعرضين عن الله، المعرضين عن التعليم، المنشغلين بدنياهم وما يلهيهم عن الله، هؤلاء أصحاب البطالة الفارغون لجهلهم، رؤيتهم قذىٰ عينه، رؤية أمثال هؤلاء عند ابن القيم – وغيره - قذىٰ عينه، يتقزز ويتأذىٰ برؤية هؤلاء، إذ ليس بإمكانه هدايتهم وتعليمهم جميعًا، ودعوتهم إلىٰ الله، ماذا يعمل؟ يتأذىٰ من رؤيتهم، المقاهي والشوارع ملأىٰ بأمثال هؤلاء، ليس له حيلة في هدايتهم وإرشادهم؛ لذلك يتأذىٰ.

«ومخالطتهم حمَّىٰ روحه» إذا خالط أمثال هؤلاء أمرضوا روحه؛ لذلك يرون أن السجن خلوة، لهم يستريحون فيها[1] مع الله يكون معهم بالنصر والتأييد والتوفيق

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفوائد» ص (٧٦ – ٧٧): ما في هذه الدار موضع خلوة فاتخذه في نفسك. لا بد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها علىٰ حذر ولا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها.

نور الحقِّ أضوأُ من الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تعشىٰ عنه.

الطريق إلىٰ الله خالٍ من أهل الشَّكِّ، ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهم علىٰ الطريق
=

ويعينهم ذلك على السير إلى الله .

❁❁❁

[الإعراض عن الله، وتَعَلُّقُ القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ من أسباب ضيق الصدر]

قال العلامة ابن القيم: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن مَنْ أحب شيئًا غير الله عذِّب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا».

يذكر العلامة ابن القيم الداء ليصف الدواء، من أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله، وتَعَلُّق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، الإعراض عن الله تعالى وعن دينه قد يصل إلى حد الرِّدَّة، وقد عَدَّ بعض أهل العلم الإعراض عن دين الله تعالى من نواقض الإسلام[1]، بحيث لا يتعلم الإسلام، ولا يحاول العمل، بل لا يرفع رأسه لمعرفة ما جاء به النبي ﷺ، يستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

الإعراض عن الدين، وعما جاء به النبي ﷺ، بحيث لا يشتغل بِتَعَلُّمِه، والعملِ به، بل لا يبالي به، ولا يرفع رأسه لتعلُّمِ الهدى الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الإعراض قد يصل إلى حد الكفر، وهو معدود من نواقض الإسلام.

=

كالأعلام ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) انظر: «الناقض العاشر» ص (١٨٨) من كتاب «نواقض الإسلام» للإمام محمد بن عبد الوهاب، مع شرحه للعلامة صالح الفوزان.

(٢) السجدة: ٢٢.

«وتَعَلُّق القلب بغيره» يشمل تَعَلُّق الإنسان برئيسه، بشيخه، وتَعَلُّقه بدنياه، وماله، ومحبوبه من غير الله.

«أو الغفلة عن ذكره» لا يذكر الله، لا يكاد يذكر الله، مشغول بما تعلق به قلبه.

«ومحبة سواه» مما يسبب ضيق الصدر: محبةُ غير الله تعالىٰ محبة لا تليق إلا بالله؛ كما تقدم، «فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّبَ به»، يكون دائمًا مشغولاً بهذا المخلوق الذي أحبه، فهو إن أحبه لكونه شيخه، أو رئيسه، أو أحب ماله، ودنياه؛ شغله ماله ودنياه عن ذكر الله تعالىٰ، وسَبَّبَ ذلك له الإعراض عن الله، وشُغِل، وإذا أحب غير الله مع الله - المحبة التي هي محبة عبادة، فيها الخضوع، والتذلل - فهو شرك أكبر، من نواقض الإسلام.

يذكر العلامة ابن القيم في بعض كتبه: «إنما كان الشرك أعظم الذنوب، وأن من مات عليه لا يغفر له، ويكون خالدًا مخلدًا في النار؛ لأن الشرك تَنْقُصُ به محبة الله تعالىٰ»[1].

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (٢٣٣): والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذُّلِّ، وهذا هو حقيقة الإسلام، وملة إبراهيم التي من رَغِبَ عنها فقد سفه نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٣٠] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله: الإشراك مع الله في المحبة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به فيتخذ من دونه ندًّا يحبه كحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، وقيل: بل المعنىٰ أنهم أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد.

فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لَّما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة... ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر علىٰ من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار...» اهـ.

محبة الله روح الإيمان، الإيمان بدون محبة الله تعالىٰ؛ كالجسدِ الذي بلا روح، أي: إيمانه إيمان شكليٌّ، ليس إيمانًا حقيقيًّا، إذا أشرك مع الله في مثل هذه المحبة العظيمة، وهذا العنصر العظيم من عناصر الإيمان؛ انقسمت هذه المحبة قسمين: قسم لله، وقسم لغير الله، نقصت المحبة، لذلك أصبح الشرك من أعظم الذنوب.

❋ ❋ ❋

[من أحَبَّ غير الله عُذِّب به]

«فإن من أحب شيئًا غير الله تعالىٰ عُذِّب به»[1]؛ لأنه مشغول، وهو لا ينفعه، ولا يضره، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، وفُتِنَ؛ فأعرض عن الله، وذلك المحبوب لا يُقدِّم ولا يؤخر، ولا ينفعه في شيءٍ.

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (١٨٥ – ١٨٧): فكلُّ من أحب شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله؛ حتىٰ يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع المعارضات. فإذا سُلِبَه اشتد عذابُه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألمُ الفِرَاقِ الذي لا يرجو عودَه، وألَمُ فواتِ ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده وألمُ الحجاب عن الله، وألَمُ الحسرة التي تقطع الأكباد، فالْهَمُّ والْغَمُّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتىٰ يردَّها الله إلىٰ أجسادها، فحينئذٍ ينتقل العذاب إلىٰ نوع هو أدهىٰ وأمَرّ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأُنسًا بربه واشتياقًا إليه وارتياحًا بحبه وطمأنينة بذكره؟! حتىٰ يقول بعضهم في حال نزعه: واطَرَباه ...

فيا من باع حَظَّهُ الغالي بأبخس الثمن، وغُبِنَ كلَّ الغَبنِ في هذا العقد، وهو يرىٰ أنه قد غُبِنَ إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السِّلَع؛ فَسَلِ المقومين.

فيا عجبًا من بضاعةٍ معَك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوىٰ، والسفير الذي جرىٰ علىٰ يده عقد التبايع، وضمن الثمنَ عَن المشتري؛ هو الرسول، وقد بعتها بغاية الهوان.

إذا كــان هــذا فِعْــلَ عبــدٍ بِنَفْــسِهِ ... فَمَــنْ ذا لَــهُ مِــن بعــد ذلــك يُكْــرِمُ

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج آية: ١٨].

«فما في الأرضِ أشقىٰ منه، ولا أكسف منه بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا»؛ لأنه صرف هذا المعنىٰ العظيم كلَّه أو جُلَّه لغير الله تعالىٰ، فَحُرِمَ محبة الله، ومعية الله الخاصة، وعونه، وتوفيقه، فلم يستفد من محبة غيره.

ثم قال: «فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها، وقرة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوىٰ الميل والإرادة والمحبة كلها إليه».

من رُزِقَ تلك المحبة دخل جنة الدنيا، ورُزِق سرورًا لا مثيل له، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاء الروح، ودواء الروح، بل حياة قلبه، وقرَّة عينه، وهي محبة الله وحده «بكل القلب»، بهذا القيد: بكل القلب، بحيث لا تنقسم المحبة بينه وبين غيره.

من رزق هذه المحبة بكلِّ قلبه دخل جنة الدنيا وهو في الدنيا، ومن دخل جنة الدنيا - إن شاء الله - يدخل جنة الآخرة[1] بتوفيق الله تعالىٰ؛ لأن هذه علامة التوفيق.

من مات علىٰ ذلك يرجىٰ له الخير. من مات علىٰ خير عمله فأرجو له خيرًا.

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (٤٥٩): «... فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا؛ كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حُرِمَ هذه الجنة؛ فهو لتلك أشد حرمانًا. والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وطيب الحياة: جنة الدنيا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر، وأي عذاب أمَرُّ من ضيق الصدر.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالمؤمن المخلص من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسَرّهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة...» اهـ.

هذه هي المحبة، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوىٰ الميل وقوىٰ الإرادة وقوىٰ المحبة كلها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، بحيث لا يلتفت إلىٰ سواه في السراءِ والضراءِ، في كلِّ لحظة، فتصير الموجودات كلها كالجمادات، إذ لا تنفع ولا تضر، حقًّا لا فرق بين الجمادات وغيرها؛ لأن المخلوقات كلَّها لا تضرك إلا بما كُتِبَ عليك، ولا تنفعك إلا بما كُتِبَ لك[1]، إذًا الأمر كله لله.

هكذا يرزق بعض عباد الله مثل هذه المحبة؛ فيدخلون جنةَ الدنيا قبل جنة الآخرة، هذه واحدة[2].

الثانية: «محبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم، والنكد، والعنا، وهي: محبة ما سواه سبحانه».

من ابتلي بمحبة مخلوق ما، أيًّا كان، ولو لم يكن من باب العبادة، لكن يشغله عن الله[3]، عن المعبود؛ سُجِنَ قلبه، وضاق صدره، وسيقت إليه الآلام، والنكد، والعناء من كلِّ فج، ويعيش في ضيق[4].

---

(١) روىٰ الإمام أحمد (١/ ٢٩٣) وغيره، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: **«يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجَفَّت الصحف»** وذكره شيخنا في «الجامع الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٣٥) وقال: هو حديث صحيح لغيره.

(٢) يعني: الأولىٰ من أقسام المحبة.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» ص (٥٨): أخسر الناس صفقةً من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس» اهـ.

(٤) قال ابن القيم رحمه الله في «الجواب الكافي» ص (٤٦١ - ٤٦٢): ولا شيء علىٰ الإطلاق أنفع للعبد من إقباله علىٰ الله، واشتغاله بذكره، وتنعمِه بحبه، وإيثاره بمرضاته، بل لا حياة ولا نعيمَ ولا سرورَ ولا بهجةَ إلا بذلك، فعدمه آلَمُ شيءٍ له، وأشدُّه عذابًا عليه، وإنما يغيّب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب اشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك =

[تشخيص أمراض القلب]

وبهذا يُشَخِّص العلامة ابن القيم أمراضَ القلبِ.

وأمراض القلب علاجها بالطب النبوي، والأطباء لا يعالجون هذا المرض، وقد يكونون هم أنفسهم مرضىٰ، ولكن العلاج في الطب النبوي، اشْتَغِل بِذِكْرِ الله، الأذكار المشروعة.

❋ ❋ ❋

[كتبٌ ينبغي شراؤها]

عليك أن تقتني كتب الأذكار: «الأذكار» للنووي[1]، و«الوابل الصَّيِّب»[2]، و«الكلم الطَّيِّب»[3]، و«صحيح الكلم الطيب»[4]، وغير ذلك من الأذكار، من الكتب

=

الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحب شيءٍ إليها وأنفعه لها.

وهذه بمنزلة السكران المستغرق في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوت وحسرته؛ حتىٰ إذا صحا وكُشف غطاءُ السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذٍ، وهكذا الحال، سواءٌ عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف علىٰ مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلىٰ الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعافٍ مضاعفةٍ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بد منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟! فلو قضىٰ الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وأن الموت لَيَعود أعظم وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم علىٰ مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب علىٰ الروح والبدن بأمُور أُخرىٰ وجودية ما لا يُقدر قدره؟

فتبارك من حمَّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملها الجبال الرواسي.

فأعْرِض الآن علىٰ نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحتَ وقد أُخِذَ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كلُّ عِوَضٍ، فكيف بمن لا عِوَض عنه؟» اهـ.

(١) وقد حققه الشيخ سليم الهلالي تحقيقًا طيبًا، يشكر عليه.

(٢) «من الكلم الطيب»، وقد حققه الشيخ الهلالي تحقيقًا جيدًا.

(٣) لابن تيمية، وقد حققه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) للعلامة الألباني.

التي جَمعَت الأذكار، المأثورة، وتبيِّن فضلَ الأذكار، ومكانةَ الأذكار؛ حتىٰ لا تنسىٰ الله، فإن نسيت الله هلكتَ ووقعتَ في هذه الآلام، إذا شُخِّص المرضُ سَهُلَ العلاج. إذا عرفنا أنواعَ هذه الأمراضِ؛ علينا أن نشتغل بالعلاج بتوفيق الله تعالىٰ.

❁ ❁ ❁

[دوام الذكر من أسباب شرح الصدر]

قال العلامة ابن القيم: «ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره علىٰ كل حال، وفي كلِّ موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه».

وهذا سهل ميسور علىٰ من يسره الله عليه. تذكر الله بالأذكار المقيدة عند نومك[(١)]، عند الاستيقاظ من النوم[(٢)]، عند دخول المنزل[(٣)]، عند دخول المسجد[(٤)]، عند الخروج من المسجد[(٥)].

الأذكار المقيدة الكثيرة: تذكر الله عند ركوبك بأذكار مشروعة، تذكر الله بالتهليل والتسبيح والاستغفار، وتكثر من الصلاة علىٰ النبي (عليه الصلاة والسلام)، وأفضل الذكر تلاوة كلام الله، وهو أفضل الذكر إلا في بعض المواطن التي عَيَّنَ الشارع لها أذكارًا معينة، تشتغل بهذه الأذكار، أما في الأوقات العامة فأفضل الذكر قراءة القرآن، بتعقُّلٍ، وتدبُّرٍ، ثم محاولة العمل به، والدعوة إليه.

---

(١) انظر: «الأذكار» ص (٧٥) وما بعدها.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق ص (٨٤ – ٨٧).

(٤) انظر: المصدر السابق ص (١٠١ – ١٠٤).

(٥) انظر: المصدر السابق ص (١٠١ – ١٠٤).

وفي كل موطن فللذكر تأثير عجيبٌ في انشراح الصدر. جرِّب، أكْثر من ذكر الله تعالىٰ؛ حتىٰ ترىٰ الأُنس مع الله(١).

❋❋❋

[من أسباب ضيق الصدر الغفلة عن الله]

فإذا تركت ذكره، وشغلك شاغلٌ، وجدت وحشةً في نفسك؛ لا تستأنس إلا حين تذكر الله بالأذكار المشروعة، «وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه(٢) وحبسه وعذابه»(٣)، الغفلة عن الله تقدمت الإشارة إلىٰ تلك الأسباب، أسباب الغفلة: «التَّعَلُّقُ بغير الله، والانشغال بغير الله، وعدم الانشغال بتعلُّم شرع الله والعمل به، والانشغال بجمع

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الوابل الصيِّب» ص (١١١): فمحبة الله تعالىٰ ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده هو المستولي علىٰ عزمات العبد وهمومه وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين، وإنما تقرّ أعينُ الناس به علىٰ حسب قرة أعينهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فمن قَرَّت عينه بالله قرَّت به كلُّ عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات، وإنما يصدِّق بهذه الأمور من في قلبه حياةٌ، وأما ميتُ القلب فيوحشك ما له، ثم فاستأنس بِغَيْبته ما أمكنك، فإنه لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به؛ فأعطه ظاهرك، وترحَّل عنه بقلبك، وفارقه بسرِّك، ولا تَشْتَغِل به عمَّا هو أولىٰ بك...» اهـ.

(٢) يعني القلب.

(٣) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الوابل الصيِّب» ص (٩٢): وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة، والذنب. وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبًا علىٰ قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات علىٰ ما هي عليه، فيرىٰ الباطل في صور الحق والحق في صورة الباطل؛ لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الرَّان فسد تَصوُّرُه وإدراكُه، فلا يَقْبَلُ حَقًّا ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوىٰ، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

المال في كلِّ وقت حتىٰ ينصرف إلىٰ ذلك انصرافًا كليًّا، وأن يُشغل بمحبوب أحبَّه - أيًّا كان ذلك المحبوب - ماله، وولده، وشيخه، ورئيسه. كل ذلك يوقعه في الغفلة عن الله، ويسبِّب له الوحشة والعذاب.

❋ ❋ ❋

[الإحسان إلى الخلق من أسباب انشراح الصدر]

«ومنها[1]: الإحسان إلىٰ الخلق، ونفعهم بما يمكنه، من المال، والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا، وقد ضرب رسول الله ﷺ في «الصحيح» مثلًا للبخيل والمتصدق **«كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، كُلَّما هم المتصدق بصدقةٍ اتسعت عليه وانبسطت؛ حتىٰ يجر ثيابه، ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة؛ لزمت كلُّ حلقةٍ مكانها، ولم تتسع عليه، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه»**.

من أسباب انشراح الصدر: الإحسان إلىٰ الخلق، ونفعهم بما يمكنه من المال.

الإحسان نوعان:

١- الإحسان في عبادة الله، بأن تعبد الله بالعبادات المشروعة، بالإخلاص، وبالمتابعة.

٢- الإحسان إلىٰ الخلق، الإحسان إلىٰ عباد الله؛ شكر لله الذي أنعم عليك، ومكنك؛ لتكون يدك هي اليد العليا، وأعطاك، ومكنك من الإنفاق والإحسان.

---

(١) أي: من أسباب انشراح الصدر.

في الإحسان إلىٰ الخلق شكر الله سبحانه وتعالىٰ، ورحمة، وشفقة، يرحم المرضىٰ، ويرحم أصحاب الحاجات، والمنكوبين، وكلَّ من يحتاج إليه، بما يمكنه من المال - قليلًا كان أو كثيرًا -، وينفعهم بجاهه بما لديه من الجاه والمنصب، يستغل جاهه، ومنصبه، ومكانته عند الناس في نفع عباد الله، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، يقول: «فإن الكريم المحسن أشرحُ الناس صدرًا وأطيبُهم نفسًا»؛ لأنه أرضىٰ الله بهذا الإحسان، وبتفريج كرب المكروبين وقضاء حاجة المحتاجين.

❁ ❁ ❁

[البخل من أسباب ضيق الصدر]

«وأما البخيل الذي ليس فيه إحسان؛ فهو أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا»؛ لأنه خالف الفطرة، وخالف المعقول، وخالف الشرع؛ لذلك ضميره يؤنِّبه؛ لذلك يحمل الهمَّ والغمَّ، والبخلُ والشُّحُّ لا يُمكِّنُه أن يَمُدَّ يد الإحسان إلىٰ عبادة الله، ويكون قلقًا بين إرضاءِ بخله وبين ما يُحِسُّه من عتابُ ضميره.

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلًا للبخيل والمتصدق؛ كمثل رجلين، عليهما جبتان من حديد، كُلَّما هم المتصدق الكريم السخي بصدقةٍ؛ اتسعت تلك الجُبَّة عليه وانبسطت؛ حتىٰ يَجُرَّ ثيابه، يعفي أثره، يعفي بذلك أثره، وينفق في سبيل الله في السر والعلانية، ولا ينفق رياءً وسمعةً، وكلَّما همَّ البخيل بالصدقة؛ لزمت كلُّ حلقة مكانها، ولا تتسع، محبوس، ولا تتسع عليه؛ حتىٰ لا يتمكن من مدِّ يَده، فهذا مثلُ انشراح صدرِ المؤمنِ المتصدِّقِ وانفساحِ قلبِهِ، ومثلُ ضيقِ صدرِ البخيلِ وانحصارِ قلبِهِ.

البخلُ يلازم الجبن، والكرمُ يلازم الشجاعة. إذا رأيت كريمًا سخيًّا فاعلم بأنه شجاع، وإذا رأيت بخيلًا شحيحًا فاعلم أنه جبانٌ. هكذا أثبتت التجارب التلازم؛ كما

سيأتي(١).

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الوابل الصَّيِّب» ص (٥٧ - ٧٧):

في شرح الحديث السابق: ولَمَّا أن كان البخيل محبوسًا عن الإحسان ممنوعًا عن البرِّ والخير؛ كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر، ممنوع من الانشراح، ضَيِّق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تقضىٰ له حاجة، ولا يعان علىٰ مطلوب، فهو كرجل عليه جبة من حديد، قد جُمِعت يداه إلىٰ عنقه، بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكُلَّما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله، فيبقىٰ قلبه في سجنه كما هو، والمتصدق كلما تصدق بصدقةٍ انشرح لها قلبُه، وانفسح لها صدرُه، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلَّما اتسع وانفسح وانشرح؛ قوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها؛ لكان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر آية: ٩].

والفرق بين الشح والبخل:

أن الشح: هو شدة الحرص علىٰ الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه.

والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلىٰ البخل، والشح كامِنٌ في النفس، فمن بخل فقد أطاع شُحَّهُ، ومن لم يبخل فقد عصىٰ شحه، ووقىٰ شرَّه، وذلك هو المفلح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾، والسخيُّ قريب من الله تعالىٰ ومن خلقه ومن أهله، وقريب من الجنة، وبعيد من النار، والبخيل بعيد من خلقه، بعيد من الجنة، قريب من النار، فجود الرجل يحببه إلىٰ أضداده، وبخله يبغضه إلىٰ أولاده؛ كما قيل:

ويُظْهِـرُ عيـبَ المـرءِ في النـاس بُخْلُـهُ	ويـسترُهُ عـنهم جميعًـا سـخاؤه
تغـطَّ بـأثواب الـسخاءِ فـإنني	أرىٰ كـلَّ عيـبٍ فالـسخاءُ غطـاؤه
وقـارن إذا قارنـت حـرًّا فـإنما	يـزين ويـزري بـالفتىٰ قرنـاؤه
وأَقْلِـلْ إذا مـا اسـتطعت قـولًا فإنـه	إذا قـلَّ قـول المـرءِ قـل خطـاؤه
إذا قـلَّ مـالُ المـرءِ قـلَّ صـديقه	وضـاقت عليـه أرضـه وسـماؤه
وأصـبح لا يـدري وإن كـان حازمًـا	أَقُدَّامـه خـير لـه أم وراؤه
إذا المـرء لم يخـتر صـديقًا لنفـسِهِ	فَنَـادِ بـه في النـاس هـذا جـزاؤه

وحدُّ السخاء: بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل ذلك إلىٰ مستحقه بقدر الطاقة، وليس كما قال البعض

[الشجاعة من أسباب انشراح الصدر]

قوله: «ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم؛ إلَّا من جنس ما للحيون البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتها، ونعيمها، وابتهاجها؛ فمحرم علىٰ كلِّ جبان؛ كما هو محرم علىٰ كلِّ بخيل، وعلىٰ كلِّ معرض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ به، وبأسمائه تعالىٰ، وصفاته، ودينه، متعلق القلب بغيره، وإن هذا النعيمَ والسرورَ يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر؛ كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارضٍ، ولا بضيق صدر هذا لعارضٍ، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المُعَوَّل علىٰ الصِّفة التي قامت بالقلب، توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان».

قال العلامة ابن القيم: «من أسباب انشراح الصدر: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر»، الشجاع الذي يبذل روحه سخيةً في سبيل الله تعالىٰ، فلذلك يبذل المال، ومنشرح الصدر؛ محبوب عند الله، واسع البطان.

البطان: حِزامٌ للقَتَب. يقال إذا أراد الإنسان أن يصف الأمر بالشدة يقول: التقت

=

نقص علمه: حد الجود: بذل الموجود. ولو كان كما قال هذا القائل لارتفع اسم السرف والتبذير، وقد ورد الكتاب بذمهما، وجاءت السنة بالنهي عنهما، وإذا كان السخاءُ محمودًا فمن وقف علىٰ حده سُمِّي كريمًا، وكان للحمد مستوجبًا، ومن قصر عنه كان بخيلًا، وكان للذم مستوجبًا .

والسخاء نوعان: فأشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك.

والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك، فقد يكون الرجل من أسخىٰ الناس، وهو لا يعطيهم شيئًا؛ لأنه سخا عما في أيديهم، وهذا معنىٰ قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك متبرعًا، وعن مال غيرك متورعًا» اهـ باختصار يسير جدًّا.

حلقتا البطان، أي: حزام القتب[(١)].

واسع البطان، متسع القلب، منشرح البال، والجبان: ضيِّق النفس. الجبان أضيق الناس صدرًا - كما قلنا - لأنه علىٰ خلاف الفطرة السليمة[(٢)]، والعقل الصريح، وأمر الشريعة، مأمور بأن يَبْذُلَ وينفق خالف ذلك خُلقه الجبنُ والبخلُ مَنَعَ من ذلك، إذًا فهو بين امتثال هذا البخل، وبين تَحَمُّلِ عتاب ضميره، وعتاب الناس له؛ لذلك هو أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، يحاول أن يَفِرَّ من الناس، ويعرض عن أصحاب الحاجات؛ لئلا يمد يد المساعدة، ويحاول أن يخفي ما لديه من النعم، لا لذة له إلا لذة البهائم البهم، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، يتلذذ بأكله وشربه ونكاحه؛ كالحيوانات، أما كونه يتلذذ بالبذل، والعطاء، وقضاء حاجات الناس، والإحسان إلىٰ المحتاجين، هذا يجد فيه الإنسان لذةً، مَنْ رزقه الله مالًا صالحًا وهو صالح، نعم، المال الصالح للرجل الصالح[(٣)]، عندما يرزق المال الصالح الحلال الطيب، وينفق في مرضاة الله تعالىٰ؛ يجد في ذلك لذةً، وسرورًا، وانشراحًا للصدر.

وأما سرور الروح، ولذة الروح، ونعيم الروح، وابتهاج الروح؛ فمحرم علىٰ كلِّ

---

(١) **قال ابن منظور في «لسان العرب» (١/ ٢٢٠)**: البِطَانُ: حزام الرَّحل والقتب، وقيل: هو للبعير كالحزام للدابة، والجمع: أبطِنَةٌ وبُطُن.

وقال ص (٢٢٢): البِطانُ للقتب الحزام الذي يُجعل تحت بطن البعير. يقال: التقت حلقتا البطان للأمر إذا اشتد، وهو بمنزلة التصدير للرجل، يقال: منه أبطنت البعير إبطانًا إذا شددت بِطَانَه. وإنه لعريضُ البطانِ أي رَخِيُّ البال» اهـ.

(٢) **قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٣٣)**: والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدمُ النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الألم» اهـ.

(٣) **هذا اللفظ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»** جاء مرفوعًا عند أحمد (٤/ ١٩٧) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو صحيح، وأورده شيخنا الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجامع الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٤/ ٤٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح.

جبانٍ؛ لأن هذه المعاني لا تحصل إلَّا حين يبذل، وحين يفرِّج، وحين يعطي، وحين يحسن، كما هو محرم علىٰ كلِّ بخيل، وعلىٰ كل معرِضٍ عن الله تعالىٰ، غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ بالله، وبأسمائه تعالىٰ وصفاته.

جَهْلُهُ بالله، بأن الله سبحانه هو المعطي، المانع، وهو المنعم، المتفضِّل، وهو الذي رزقه، وهو الذي إن شاء يمسك عنه ويزيل مالَه.

جَهْلُهُ بأسمائه وصفاته، وجهله لدينه، الذي يأمر بالإحسان، والرحمة، والشفقة، متعلق القلب بغيره، مشغول بغيره.

دائمًا إما بمال ذاته، أو بأمثاله من زملائه البخلاء(١)، أو متعلق بغيره ليلتمس منهم البركة في ماله؛ ليباركوا له في ماله، وإن هذا النعيمَ والسرورَ(٢) يصير في القبر رياضًا وجنة؛ لذلك قال من قال كما سمعتم: لا يدخل الإنسان جنة الآخرة حتىٰ يدخل جنة الدنيا(٣)، إذا دخل جنة الدنيا حصل له هذا السرور، وهذه الفرصة، ونعيم القلب، هذه

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الوابل الصيِّب» ص (١١١): واعلم أن الحسرة كلَّ الحسرة الاشتغال بمن لا يَجُرُّ عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحَظِّكَ من الله عَزَّوَجَلَّ، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشتات قلبك، وضعف عزيمتك، وتفرُّق همِّك.

فإذا ابتليت بهذا - ولا بد لك منه - فعامل الله فيه، واكتب عليه ما أمكنك، وتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجرًا لك، لا تجعله خسارةً، وكن معه كرجل سائر في طريقه، عَرَضَ له رجلٌ أوقفه عن سيره، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبىٰ ولم يكن في سيره مطمع؛ فلا تقف معه، بل اركب الدرب وَدَعْهُ، ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق - ولو كان أي من كان - فانج بقلبك، وظن بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة فتؤخذ، أو يَطْلُع عليك الفجر وأنت في المنزلة فتسير الرفاق فتصبح وحدك، وأنىٰ لك بلحاقهم» اهـ.

(٢) الذي يجده الرجل الصالح المنفق المحسن، كما تقدم.

(٣) هو ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نقل ذلك عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الوابل الصَّيِّب» ص (١٠٩)، قال: «وسمعت شيخ الإسلام - قدَّس الله روحه - يقول: إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة...» اهـ.

المعاني تتحول إلىٰ رياض وجنةٍ، القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار[١]، وذلك الضيق الذي عند البخيل والذي عند الجبان، ذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا؛ لأن هذا البخيل قد يبخل بحق الله، لا يؤدِّي حقوق الله التي جعلها الله في ماله، الذي جعله في يدِ هؤلاء العباد. المالُ مالُ الله، جعله في يدِ بعض عباده؛ ليحسن البعض إلىٰ البعضِ الآخرِ من مال الله لعباد الله، جعل الله في هذا المال حقًّا واجبًا لازمًا، ركنًا من أركان الإسلام[٢]، وجعل فيه واجبات أُخرىٰ، يبخل بكل ذلك ويتحوَّل كل ذلك عذابًا وسجنًا، وحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر، فلينظر هل هو منشرح الصدر، يعيش في نعيم وسرورٍ، أو هو ضيق الصدر، يعيش في سجن وحسرةٍ وعذاب، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا.. التوفيق بيد الله.

❁ ❁ ❁

[لا عبرة بانشراح الصدر لعارض أو بضيقه]

«ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض». أي: لانشراح صدر هذا الذي ضاق صدره، ينشرح صدره أحيانًا لعارض، ولا يضيق صدر هذا لعارض، الإنسان له أعراض بشرية، قد تحصل للإنسان بعض الأعراض البشرية، يضيق صدر المؤمن في بعض الظروف، وفي بعض الحالات، ولكنه يزول بذكر الله تعالىٰ، وبالالتجاء إلىٰ الله، والإنابة إليه، وكون الإنسان يصاب أحيانًا بأمراض، ثم يتعالج فيزول ذلك، أو يحصل لهذا الذي صدره ضيقٌ حَرِجٌ أحيانًا انشراح، إن وُفِّقَ ومَدَّ يدَه وأحسن.

هذه عوارض، لكن الصفة الدائمة، والحالة الدائمة؛ كما وصِفَتْ، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المُعَوَّل علىٰ الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه

(١) جاء بهذا اللفظ مرفوعًا، رواه الترمذي برقم (٢٤٦٠)، وسنده ضعيف.

(٢) أي: إيتاء الزكاة.

وحبسه فهي الميزان، والله المستعان.

❁ ❁ ❁

[إخراج الدغل من القلب من أعظم أسباب انشراح الصدر]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ[(١)] من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء، فإن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه؛ لم يحظَ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتورَانِ علىٰ قلبِهِ، وهو للمادة الغالبة عليه منهما».

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «من أعظم تلك الأسباب إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة»: الحسد[(٢)]، والحقد[(٣)]، الحرص[(٤)] الشديد، وطول الأمل، والتسويف بالتوبة.

المبتلىٰ بالحسد إذا رأىٰ نعمةً علىٰ غيره تمنىٰ زوالها، سواء انتقلت إليه، أو زالت إلىٰ أي جهة، لا تطيب نفسه عندما يرىٰ نعمة علىٰ غيره، من مالٍ، وعلمٍ، وصحةٍ، والتزامٍ، أيّ نعمة يصاب بالحسد[(٥)].

---

(١) قال في القاموس: الدَّغَل محركة دخلٌ في الأمر مفسد، والداغلة: الحقد المكتتم.

(٢) الحسد هو: أن يَرَىٰ الرجل لأخيه نعمة فيتمنىٰ أن تزول عنه، وتكون له دونه. «النهاية» (١/ ٣٧٤) مادة «حسد».

(٣) الحقد هو: الانطواء علىٰ العداوة والبغضاء، والجمع: أحقاد. «المصباح المنير» ص (٨٨) مادة «ح ق د».

(٤) قال الفيومي في «المصباح المنير» ص (٨١): الحرص بالكسر، وحرص علىٰ الدنيا إذا رغب رغبةً مذمومة، فهو حريص، وجمعه: حراص.

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٨/ ٣٣٤).. ولهذا الكتاب والسنة أن الشح والحسد من جنس واحدٍ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩].

فأخبر عنهم أنهم يبذلون ما عندهم من الخير مع الحاجة، وأنهم لا يكرهون ما أنعم به علىٰ إخوانهم، وضد الأول: =

وهذا الحاسد معترض على الله، فإن لسان حاله يقول:

لماذا أعطيت فلانًا يا رب هذه النعمة؟ لماذا رزقته مالًا، وصحة، وعلمًا، والتزامًا، وغير ذلك[1] من النعم؟ حسدٌ وحقدٌ، يَضِيقُ صَدْرُه، صفات مذمومة تنتج الغيبة[2] والنميمة[3]، تنتج ربما السعي في إلحاقِ الضرر بالمحسود، وهي توجب ضيقه وعذابه.

الحاسد مصاب بطول الأمل أنه سوف يفعل، سوف يجمع، سوف يشتري، سوف يبني. أملٌ طويلٌ؛ وتأخيرٌ في التوبة فيها بعد. بعد أن يشيبَ، بعد أن يعجز، بعد أن يَكْبُرَ، بعد كذا وكذا. صفاتٌ ذميمةٌ تحول بينه وبين حصول البر.

فإن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرح صدره - التي تقدم ذكر أكثرها - ولكنه لم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، قد يعطي، وينفق، ويكثر من ذكر الله، لكن

= البخل، وضد الثاني: الحسد، ولهذا كان البخل والحسد من نوع واحدٍ، فإن الحاسد يكره عطاء غيره، والباخل لا يحب عطاء نفسه، ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾، فإن الشح أصل البخل، وأصل للحسد، وهو ضيق النفس وعدم إرادتها وكراهتها للخير علىٰ الغير، فيتولد عن ذلك امتناعه من النفع، وهو البخل، وإضرار المنعم عليه، وهو الظلم، وإذا كان في الأقارب كان قطيعة» اهـ.

(١) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الطب الروحاني» ص (٣٤): وكأن الحاسدَ مضاد لإرادة المعطي سبحانه. قال بعض الحكماء:

ألا قُلْ لِمَنْ كانَ لي حاسدًا ... أتدري علىٰ مَنْ أسأتَ الأدبْ

أسأتَ علىٰ الله في فِعْلِهِ ... لأنَّكَ لَمْ تَرْضَ لي ما وَهَبْ

فجَازاكَ عنِّي بأنْ زَادَني ... وَسَدَّ عليكَ وجُوه الطَّلَبْ

ثم إن المحسود لم ينقص الحاسد من رزقه، ولم يأخذ شيئًا من يده، فقصد الحاسد زوال ما أُعطيه ظلمٌ محضٌ.

ثم ينبغي للحاسد أن ينظر في حال المحسود، فإن كان إنما نال الدنيا فقط، فهذا ينبغي أن يُرْحَمَ لا أن يُحْسَدَ؛ لأن الذي ناله في الغالب عليه لا له، وهل فضول الدنيا إلا هموم...؟!» اهـ.

(٢) الغِيبَة: أن يُذكرَ الإنسانُ في غَيْبَتِهِ بسوءٍ؛ وإن كان فيه، فإذا ذكرته بما ليس فيه فهو البُهت والبهتان»، «النهاية» (٢/ ٣٣١).

(٣) النميمة هي: نقل الحديث من قومٍ إلىٰ قومٍ علىٰ جهةِ الإفساد والشرِّ»، «النهاية» (٢/ ٧٩٨).

مع ذلك أُصيب بهذه الأمراض، يقول: «لم يحظَ من انشراح صدره بطائل»، لا طائل تحت انشراح صدره، طالما هو موصوف بهذه الصفات الذميمة.

❁ ❁ ❁

[كتب مهمة لعلاج ما تقدم ذكره]

العلامة ابن القيم له كتب يعالج فيها هذه الأمراض بالطب النبوي. له كلام عظيم في: «طريق الهجرتين»[١]، و«الفوائد»[٢]، و«مدارج السالكين»[٣]، و«مفتاح دار السعادة»[٤]، علىٰ شبابنا أن يستغلوا أوقات الفراغ في دراسة هذه الكتب التي تعالج أمراض القلب، وتحمل الإنسان علىٰ أن يحاول؛ ليَلْحَقَ بركب السلف الصالح، بالاستقامة لا بالالتزام الشكلي. الالتزام الشكلي ديكور لا يجدي، الثوب القصير واللحية الطويلة الكثة مما شرع الله وحث عليه؛ لكن إن لم توجد وراء هذا معانٍ إسلامية لا تجدي هذه المظاهر وحدها، بل ينبغي أن تكون هذه المظاهر أثرًا من آثار التزامه، واستقامته الحقيقية، إذا استقام قلبه، وطَهُرَ قلبه، وأملت عليه هذه المعاني هذا الالتزام الظاهري؛ نِعْم الالتزام، ونعمة الاستقامة، أما كون الإنسان يكتفي بالمظهر، ولا يعالج أمراض قلبه؛ هذا لا يجدي، ولا ينفع.

الكتب التي ذكرتها تشرح لك آيات وأحاديث فيها العلاج، وتحملك علىٰ تدبر كتاب الله، والتأمُّل في سنته عليه الصلاة والسلام؛ حتىٰ تعالج نفسك بنفسك، وتكون طبيب نفسك بدراسة هذه الكتب، وإلا فإن الأمراض خطيرة ... لا بد أن يجمع بين

---

(١) وقد طبع طبعة جيدة بـ «دار عالم الفوائد».

(٢) وقد طبع طبعة جيدة بـ «دار عالم الفوائد».

(٣) وقد طبع طبعة جيدة، بتحقيق: عبد العزيز بن ناصر الجُلَيِّل.

(٤) وقد طبع طبعة جيدة، بتحقيق: الشيخ علي بن حسن الحلبي.

علاج أمراض القلب، وبين تطبيق الشريعة والالتزام. والتوفيق بيد الله.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرح الصدر، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه؛ لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران علىٰ قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما».

تعترض كلُّ مادة المادةَ الأخرىٰ، وتقاوم، وهو للمادة الغالبة عليه منهما. إما أن تغلب الأوصاف المذمومة، البخل، وأثره، والحقد وأثره، والتسويف، وطول الأمل، والعُجب، والكبر، وغير ذلك .

❃ ❃ ❃

[ترك فضول ما لا ينفع]

قال: «ومنها: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع والمخالطة، والأكل، والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا، وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب في كلِّ آفة من هذه الآفات بسهم! وما أنكد عيشَه! وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه! ولا إله إلا الله، ما أنعم عيشَ من ضرب في كلِّ خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم! وكانت هِمَّتُه دائرةً عليها، حائمةً حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾[1]، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالىٰ، والمقصود أن رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كلِّ صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح، والحياة، وقرة

---

(١) الانفطار: ١٣.

(٢) الانفطار: ١٤.

العين، مع ما خُصَّ به من الشرح الحسِّي، وأكمل الخلق متابعةً له - أكملهم انشراحًا، ولذةً، وقرة عين، وعلىٰ حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره، وقرة عينه، ولذة روحه؛ ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فَمُسْتَقِلٌّ ومستكثر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومنها - من أسباب انشراح الصدر -: ترك فضول النظر»، ابتعد عن النظر إلىٰ ما حرم الله عليك[1]، من جميع المحرمات التي تأتيها

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (٣٥٠ - ٣٥٣): والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولِّد خطرةً، ثم تولد الخطرةُ فكرةً، ثم تولد الفكرةُ شهوةً، ثم تولد الشهوةُ إرادةً، ثم تقوىٰ فتصير عزيمةً جازمةً، فيقع الفعل - ولا بد - ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر علىٰ غض البصر أيسر من الصبر علىٰ ألَمِ ما بعده.

قال الشاعر:

كـلُّ الحـوادثِ مبـداها مـن النظـرِ ... ومعظـمُ النـار مـن مستـصْغَرِ الـشَررِ

كـم نظـرةٍ بلغـتْ مـن قلـبِ صـاحِبِها ... كمبلـغ الـسهم بـين القـوسِ والـوترِ

والعَبْـدُ مـا دامَ ذا طَـرْفٍ يُقَلِّبُـه ... في أعْيُنِ العِينِ موقـوفٌ علىٰ الخطَـرِ

يـسرُّ مُقْلَتَـهُ مـا ضَرَّ مهجتـه ... لا مرحبًـا بـسرورٍ عَـادَ بالـضَّررِ

ومن آفات النظر: أنه يورِّث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرىٰ العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترىٰ ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك علىٰ بعضه.

قال الشاعر:

وكنـتَ متـىٰ أرسـلتَ طرفـك رائـدًا ... لقلبـك يومًـا أتعبتـك المنـاظر

رأيـت الـذي لا كلُّـه أنـت قـادرٌ ... عليـه، ولا عـن بعـضه أنـت صـابر

=

بالنظر.

كذلك كونك تسافر لتنظر - كما يقولون - ولتتفرَّجَ، ولِترىٰ أشياء لإدخال السرور عليك - في زعمك[1] - وأنت معرض بذلك عن النظر في كتاب الله تعالىٰ، النظر الذي

=

وهذا البيت يحتاج إلىٰ شرح، ومرادُه أنك ترىٰ ما لا تصبر عن شيءٍ منه، ولا تقدر علىٰ شيءٍ منه، فإن قوله: «لا كلُّه أنت قادر عليه» نفي لقدرته علىٰ الكلِّ، التي لا تنتفي إلا بنفي القدرة عن كلِّ واحدٍ، وكم ممن أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلًا؛ كما قيل:

يــا راميًــا بــسهامِ اللَّحْـظِ مجتهـدًا	أنـتَ القَتِيْـلُ بـما ترمـي فـلا تُـصِبِ
وباعـثَ الطـرفِ يرتـاد الـشفاء لـه	أحـبِس رسـولَكَ لا يأتيـكَ بالعطـبِ

وأعجب من ذلِك أنَّ النظرة تجرح القلب، فَيُتْبِعُهَا جرحًا علىٰ جرح، ثم لا يمنعه ألمُ الجراحة من استدعاء تكرارها، ولي أيضًا في هذا المعنىٰ:

مـا زلـتَ تُتْبِـعُ نظـرةً في نظـرةٍ	في إثـر كـلِّ مليحـةٍ ومليـحِ
وتظـنّ ذاك دواءَ جرحـك وهـو في التَّـ	ـحقيق تجـريحٌ علىٰ تجـريحِ
فـذبحت طَرْفَـكَ باللِّحـاظِ وبالبكـا	فالقلـبُ منـك ذبيـحٌ أيُّ ذبيـحِ

وقد قيل: حَبْسُ اللحظات أيسر من دوام الحَسَرَات» اهـ.

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (٥٤٠): وإذا عُرِفَ هذا؛ فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كلِّ حيّ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها؛ فهي تُذَمُّ إذا أَعَقَبتْ ألمًا أعظم منها، أو منعت لذةً خيرًا وأجلَّ منها، فكيف إذا أعقبت أعظمَ الحسرات، وفوَّتت أعظم اللذات والمسرَّات؟! وتُحْمَد إذا أعانت علىٰ لذةٍ عظيمةٍ دائمةٍ مستقرةٍ لا تنغيصَ فيها ولا نكدَ بوَجهٍ ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها، وطيب العيش فيها، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧]، وقال السحرة لفرعون لمَّا آمنوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾. [طه: ٧٢ - ٧٣]

والله سبحانه خلق الخلق ليُنيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، لذَّاتها دائمة، ونعيمها خالص من كلِّ كدرٍ وألمٍ، وفيها ما تشتهيه الأنفس من قرَّة أعين، بل فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُنٍ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ.

وهذا المعنىٰ الذي قصده الناصح لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٨ - ٣٩].

=

يورث التدبُّر، والتعقل، والعمل.

«فضول النظر والكلام»، فضول الكلام يشمل: الكلامَ المحرم؛ كـ«الغيبة» و«النميمة»، والكلامَ الذي لا طائلَ تحته، سواليف تضيِّعُ الأوقات، يقضون بها الأوقات، ويقتلون بها الأوقات؛ وهم يصرحون بذلك. يطلب بعضهم بعضًا الاجتماع ليقضون الأوقات؛ لأن الأوقات رخيصة عندهم، وطويلة يقضونها في فضول الكلام، ليس فيه ذكر الله، ولا فيه تلاوة كتاب الله، ولا فيه الأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر[(١)].

و«فضول الاستماع»، بدلًا من أن يستمع إلىٰ كلام الله، وإلىٰ أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، إلىٰ الدرس النافع، إلىٰ المحاضرات النافعة، فإذا هو يتتبع ليسمع الأغاني، ويسمع فضول الكلام، وكلُّ ذلك يورث ضيق صدره.

=

فأخبر أنَّ الدنيا متاعٌ يُسْتَمْتَعُ بها إلىٰ غيرها، وأنَّ الآخرة هي المستقر، وإذا عُرِف أنَّ لذَّات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلىٰ لذات الآخرة، ولذلك خُلِقَت الدنيا ولذَّاتها، فكلُّ لذةٍ أعانت علىٰ لذة الآخرة وأوصلت إليها لَمْ يُذَمَّ تناولُها، بل يُحمَد بحسب إيصالها إلىٰ لذة الآخرة...» اهـ.

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفوائد» ص (٧١): الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما: اجتماع علىٰ مؤانسة الطبع، وشغل الوقت، فهذا مضرَّته أرجح من منفعتِهِ، وأقلُّ ما فيه أنَّه يُفْسِدُ القلبَ، ويضيِّع الوقت.

الثاني: الاجتماعُ بهم علىٰ التعاون علىٰ أسباب النجاة، والتواصي بالحقِّ والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكنَّ فيه ثلاث آفاتٍ.

إحداها: تَزَيُّن بعضهم لبعضٍ.

الثانية: الكلام، والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوةً وعادةً ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاحٌ: إما للنفس الأمَّارة، وإمَّا للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادةٌ من اللقاح، فمن طابَ لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة، لِقاحها من المَلَكِ، والخبيثة لِقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمتِهِ الطيباتِ للطيِّبين، والطيِّبين للطيبات، وعكس ذلك» اهـ.

«والمخالطة»، فضول المخالطة - وخصوصًا في هذه الأيام - لا تنتج إلا شرًّا، إلا ما شاء الله، اجتماع علىٰ: قيل، وقال فلان، قال كذا، فلان جاهل، فلان مقصر، فلان ضعيف. وللأسف أصبح هذا الكلام اليوم يسجل في الأشرطة، غيبات، ونميمات[١]، وفضول الكلام، يسجل في الأشرطة، توزَّع علىٰ الناس، لو خالطوا أهل العلم وأهل الفقه في الله، لو خالطوا طلاب العلم ومن يستفيدون منهم؛ لكان خيرًا لذلك.

خير للإنسان في هذه الأيام أن يلازم العزلة؛ ما لم يجد مجالًا للمخالطة النافعة التي ينتفع بها، أو ينفع بها[٢].

«فضول الأكل» يبحث عن كلِّ ما لذَّ وطاب، لا يقتصر علىٰ ما يستعين به علىٰ طاعة الله، يكثر من الأكل فوق اللازم.

---

(١) في هذه الأيام التي يتكلم فيها الشيخ كان الكثير من الشباب لا همَّ لهم إلا الطعن في العلماء السلفيين، والله المستعان.

(٢) قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٤٢٥) مجيبا علىٰ قول السائل: هل الأفضل للسالك العزلة أو الخلطة؟ بقوله: فهذه المسألة وإن كان الناس يتنازعون فيها إما نزاعًا كليًّا وإما حاليًّا، فحقيقة الأمر: أن «الخلطة» تارة تكون واجبةً أو مستحبةً، والشخص الواحد قد يكون مأمورًا بالمخالطة تارةً، وبالانفراد تارةً، وجماع ذلك: أن «المخالطة» إن كان فيها تعاون علىٰ البر والتقوىٰ فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون علىٰ الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات؛ كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك؛ هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوراج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجَّارًا، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانًا، إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له ونحو ذلك.

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره، وصلاته وتَفَكُّرِه، ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلىٰ انفراده بنفسه، إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يَكُفُّ فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقًا خطأ، واختيار الانفراد مطلقًا خطأٌ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كلُّ إنسان من هذا وهذا، وما هو الأصلح له في كلِّ حال؛ فهذا يحتاج إلىٰ نظر خاص كما تقدم» اهـ.

«وفضول النوم» يقضي أكثر أوقاته في النوم، وقد قيل: إن بعض البطالين في هذه الأيام يجيءُ من العمل بالليل، ويضبط ساعته علىٰ الساعة السابعة صباحًا؛ لئلا يفوته الدَّوام، ليس له هَمٌّ في صلاة الفجر؛ فضلًا عن قيام الليل، بل المحافظة كلُّها علىٰ الدوام، وباقي الأوقات للنوم بعد فضول الأكل، وفضول الشرب، وفضول المخالطة، وفضول كلِّ شرٍّ، ينهي ذلك بالنوم الطويل، الذي يؤدِّي إلىٰ ترك صلاة الفجر، أي: إلىٰ الكفر، يتعمد ذلك[1]، هكذا سُئلنا عدة مرات.

من شباب وصل بهم الترف إلىٰ هذه الدرجة، نسأل الله لنا ولهم العافية، والتوبة النصوح.

فإن هذه الفضولَ التي تقدم ذكرها تستحيل آلامًا، وغمومًا يومًا ما، يَكْبُرُ في السِّنِّ فيجد أنه قضىٰ شبابه في فضول المخالطة، وفضول النظر، وفضول الكلام، وفضول النوم، تسبِّبُ له آلامًا، وغمومًا، ولكن إن كان ذلك يسبِّب له التوبة، والرجوع إلىٰ الله، نِعْمَ الألمُ، ونِعْمَ الحُزْنُ، ونعم الهمُّ والغمُّ، إذا كانت النتيجة: التوبة والإنابة[2]، لكن إذا

---

(١) قال العلامة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة» (١٠/ ٣٧٤ - ٣٧٦): من يتعمد ضبط الساعة إلىٰ ما بعد طلوع الشمس؛ حتىٰ لا يصلي الفجر في وقتها؛ فهذا قد تعمد تركها في وقتها، وهو كافر بهذا عند جمع كثير من أهل العلم كفرًا أكبر - نسأل الله العافية - لتعمده ترك الصلاة في الوقت، وهكذا إذا تعمد تأخير الصلاة إلىٰ الظهر، ثم صلاها عند الظهر، أي: صلاة الفجر.

أما من غلبه النوم حتىٰ فاته الوقت؛ فهذا لا يضره ذلك، وعليه أن يصلِّي إذا استيقظ، ولا حرج عليه، إذا كان قد غلبه النوم، أو تركها نسيانًا، مع فعل الأسباب التي تعينه علىٰ الصلاة في الوقت، وعلىٰ أدائها في الجماعة، مثل: تركيب الساعة علىٰ الوقت، والنوم مبكرًا ...» اهـ.

(٢) وقد تقدم كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الإنابة، وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام طيب جدًّا في «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/ ٣٧٣) أنقله هاهنا لنفاسته، قال:

كثيرًا ما يتكرَّر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقوله حكايةً عن شعيب أنّه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله عن نبيِّه داود: ﴿وَخَرَّ =

رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ [ص: ٢٤].

فالإنابة: الرجوع إلىٰ الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمَّن المحبَّة والخشية، فإنَّ المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له، خاشعٌ ذليلٌ.

والناسُ في إناباتهم علىٰ درجات متفاوتة: فمنهم المنيب إلىٰ الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها: مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم، والخشية، والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حُبِّبَ إليه فعلُ الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها. الرجاءُ ومطالعةُ الوعد والثواب، ومحبَّة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأوَّل، وأشرح صدورًا، وجانبُ الرجاءِ ومطالعةِ الرحمة والمنَّة أغلبُ عليهم؛ وإلا فكلُّ واحدٍ من الفريقين منيبٌ بالأمرين جميعًا، ولكن خوفُ هؤلاء اندرج في رجائهم. فأنابوا بالعبادات، ورجاءُ الأوَّلين اندرجَ تحت خوفهم، فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلىٰ الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة: شهودُ الفضل، والمنَّة، والغنىٰ، والكرم، والقدرة؛ فأنزلوا به حوائجهم، وعلَّقوا به آمالهم. فإنابتهم إليه من هذه الجهة، مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكنَّ إنابتهم الخاصَّة إنَّما من هذه الجهة. وأمَّا الأعمال فلم يُرزَقوا فيها الإنابةَ الخاصَّة.

ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابةَ اضطرار، لا إنابةَ اختيار؛ كحال الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتةً عن الله سبحانه، معرضةً عنه إلىٰ مألوف طبيعي نفساني، قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلىٰ معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلىٰ غيره. ولها إليه إنابةٌ ما بحسب إيمانها به، ومعرفتها له.

فأعلىٰ أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه، بشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عمَّا سوىٰ محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيءٌ عن الإنابة، فإنَّ الأعضاء كلها رعيتها، وملكها تبع للروح، فلمَّا أنابت الروح بذاتها إليه إنابةَ محبٍّ صادقِ المحبة، ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حبٌّ ساكن لمحبوبه، أنابت جميعُ القوىٰ والجوارح. فأناب القلبُ أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار، وأناب العقلُ بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إيَّاها دون غيرها، فلم يبقَ فيه منازعة شبهة معترضة دونها.

وأنابت النفسُ بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة. وانقادت للأمر خاضعة له، راغبةً فيه، مؤثرةً إيَّاه علىٰ غيره، فلم يبقَ فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلىٰ مولاها الحق، ورضىٰ بقضائه، وتسليمًا لحكمه. وقد قيل: إنَّ تدبيرَ العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس.

كان لا يشعر بذلك، يبقىٰ حياته في همٍّ وغمٍّ، وألمٍ، وتستحيل آلامًا، وهمومًا، وغمومًا في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيِّقه، ويتعذب بها، لا يجد من نفسه انشراحًا، كيف ينشرح باله وقد أعرض عن الله؟ وعن ذكر الله، وعن الكلام النافع، والنظر النافع، والاستماع النافع؟ من أين له انشراح الصدر؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها»، من هذه الفضول، ثم يقول: «لا إله إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب في كلِّ آفةٍ من هذه الآفات بسهمٍ!» ضرب بسهمٍ في فضول النظر، فضول الكلام، فضول الاستماع، جمع هذه الأشياء كلها.

«وما أنكد عيشَه؛ وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه!».

وبالمقابل: «لا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم!» الإنابة إلىٰ الله، والإحسان إلىٰ عباد الله، والإكثار من ذكر الله، وغير ذلك من الخصال المحمودة، التي تقدم ذكرها، «وكانت همَّتُه دائرةً عليها» علىٰ هذه الخصال، مشغول بها، حائمة حول تلك الخصال، بين ذكرٍ، وعطاءٍ، وإحسانٍ، وتدبرٍ

=

وأنابَ الجسدُ بالأعمالِ والقيام بها، فرضِها وسننها، علىٰ أكمل الوجوه، وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصَّة، فلم يبقَ من هذا العبد المنيب عرقٌ ولا مفصلٌ إلا وله إنابة ورجوع إلىٰ الحبيب الحق، الذي كلُّ محبَّةٍ سوىٰ محبته عذاب علىٰ صاحبها، وإن كانت عَذْبَةً في مبادئها؛ فإنَّها عذاب في عواقبها. فإنابةُ العبد - ولو ساعةً من عمره - هذه الإنابة الخالصة أنفعُ له، وأعظمُ ثمرةً من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. بل هذا روحه منيبة أبدًا، وإن تواریٰ عنه شهودُ إنابتها باشتغالٍ، فهي كامنة فيها كمونَ النَّارِ في الزِّناد.

وأمَّا أصحابُ الإنابات المتقدمة، فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاءِ والذكر والابتهال، فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتٌ عمَّن قد أنابَ إليه. فهو ينيب ببعضه ساعةً، ثمَّ يتركُ ذلك مقبلاً علىٰ دواعي نفسه وطبعه.

والله الموفق المعين، لا ربَّ غيره، ولا إله سواه.

لكلامِ الله، وغير ذلك، «فلهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار: ١٣]، هم في نعيم في الدنيا قبل نعيم الآخرة، «ولذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، «وبينهما مراتب متفاوتة، لِا يُحصيها إلا الله».

قد ذكرت الكتب التي يتوسع فيها ابن القيم في هذه الخصال، يعدد فيها تلك الخصال المحمودة، ويدعو إليها، ويعدد فيها تلك الخصال المذمومة، ويحذر منها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❁ ❁ ❁

[أكمل الناس في انشراح الصدر: هو رسول الله ﷺ]

«والمقصود أن رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كلِّ صفةٍ يحصل بها انشراح الصدر» في جميع هذه الصفات هو أكمل الخلق، «واتساع القلب، وقرَّة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح، والحياة، وقرَّة العين، مع ما خُصَّ بهِ من الشرح الحسِّي» حيث رزقه الله الشرح الحسي، حُسْنَ الخلق: البشاشة، وعدم العبوس، وحسن المخالطة، وحسن المعاشرة مع عباد الله.

❁ ❁ ❁

[بحسب المتابعة يكون انشراح الصدر]

«وأكمل الخلق متابعةً له أكملهم انشراحًا، ولذةً، وقرة عينٍ، وعلىٰ حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره، ولذة روحه، ما ينال» لا ينال الإنسان هذه المعاني إلا باتباع رسول الله ﷺ، إذْ تقدم أن: لا إله إلا الله، وإخلاص العبادة لله وحده؛ لا بد أن ينضم إلىٰ ذلك شهادة أن محمدًا رسول الله، وأن يكون مع ذلك متابعته، والتأسِّي به، وأن تعبد الله بما جاء به هذا النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - وهو ﷺ في ذروة

الكمال في شرح الصدر، أمرٌ لا يمكن شرحه، «ورفع الذكر» وقد رفع الله ذكره، حيث لا يتم إسلام المرء بذكر الله وحده إلا بذكره عليه الصلاة والسلام، وحيث لا تصح صلاتك، أذانك، وإقامتك، وأكثر العبادات؛ إلا أن يُذكر رسول الله ﷺ مع ذكر الله، كل ذلك شريطة أن تكون محبتك له ﷺ بأنه عبد الله ورسوله، أما تقدير رسول الله ﷺ واحترامه بكونه عبقريًا؛ كما يفعل بعض الكتاب، أو يحب ذاته المحمدية؛ لكونه قريبًا له، ولكونه كريمًا، عظيمًا، دون أن يشهد برسالته؛ كلُّ ذلك لا يجدي.

❁ ❁ ❁

[ليس في الوجود من يُحَبُّ، أو يخاف، أو يعظم لذاته؛ إلا الله]

إذ لا يوجد من يحبُّ لذاته إلا الله[1]، ومن يخاف ويعظم لذاته إلا الله.

❁ ❁ ❁

[محبة النبي ﷺ وشرط ذلك]

فرسول الله محبته شعبة من شعب الإيمان، لكن شريطة أن تحبه؛ لأنه عبد الله ورسوله، وأنتم تعلمون أن محبة أبي طالب كانت محبةً ذاتيةً شخصيةً قرابيةً، لم تُفِدْهُ

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «الفوائد» ص (١٨٣): «وليس في الوجود ما يحب لذاته ويُحمد لذاته إلا هو سبحانه، وكلُّ ما يُحَبُّ سواه فإن كانت محبته تابعةً لمحبته سبحانه بحيث يُحَبُّ لأجله فمحبته صحيحة، وإلا فهي محبة باطلة، وهذا هو حقيقة الإلهية، فإن الإله الحق هو الذي يُحَبُّ لذاته ويُحْمَدُ لذاته، فكيف إذا انضاف إلىٰ ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبِرُّه ورحمته، فعلىٰ العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله، فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن علىٰ الحقيقة بأصناف النِّعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيحبه لإحسانه وإنعامه، ويحمده علىٰ ذلك، فيحبه من الوجهين جميعًا، وكما أنه ليس كمثله شيءٌ، فليس كمحبته محبة، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خُلِقَ الخلق لأجلها، فإنها غاية الحب بغاية الذُّلّ، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يقبل لصاحبه عملًا» اهـ.

الفائدة المطلوبة؛ لذلك يجب محبة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - للمعاني الإسلامية، ثم اتباع شرعه، وهديه، وألَّا تعبد الله إلا بما جاء به هذا النبي الكريم، عليه الصلاة والسلام.

قال العلامة ابن القيم: «ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان».

❁ ❁ ❁

[حفظ الله لأتباع نبيه عليه الصلاة والسلام]

وهكذا لأتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، وهذه هي معاني المعية الخاصة[1]، ودفاعه عنهم، إن الله سبحانه وتعالىٰ يدافع عن الذين آمنوا واتبعوا رسوله ﷺ، واتبعوا شرعه، وطبقوا شريعته، يدافع عنهم وإن كان قد يبتليهم بأن يسلط عليهم أعداءهم، يجب أن يعلم المؤمن - إذا دافع الله عنه، ونصره، وأيده - أن ذلك فضل منه سبحانه، وإن ابتلاه، وسلط عليه أعداءه، وخصومه، وأُوذي؛ فليَعلم أن ذلك عدل منه سبحانه وتعالىٰ، وفي كلتا الحالتين يجب أن يحقق العبودية.

من تحقيق العبوديَّة أن توافق إرادتُك إرادةَ محبوبك، وهو الله. لا تحب إلا ما يحبه،

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص (٤٣٦ - ٤٣٧): «وهذه هي المعية الخاصة المذكورة في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقول النبي ﷺ: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما» [متفق عليه]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه آية: ٤٦]... فمتىٰ كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمانًا، فبالله يهون كلُّ صعبٍ، ويسهل كلُّ عسير، ويقرب كلّ بعيد، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان، فلا هَمَّ مع الله، ولا غم، ولا حزن...».اهـ.

ولا تكره إلَّا ما يكرهه، لا تحب إلا من يحبه ربُّك، ولا تحب من الأعمال إلا ما يحبها، ولا تكره إلا ما يكرهه ربُّك ومولاك، وبهذا تحقق معنىٰ العبودية(١).

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمدٍ وآله وصحبه.

***



للصف والمراجعة والتحقيق
القاهرة - هاتف: ٠١٠٧٢١٩٥٤٣
البريد الإلكتروني: EBADALRHMAN_SFEF@YAHOO.COM

(١) **قال أبو همام كان الله له:** كان الفراغ من هذا العمل والتعليق عليه قُبيل طلوع فجر اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، سنة ثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكان ذلك بمكة المكرمة، بمحلة «الجُمَّيْزة»، بـ«جبل أبو سلاسل»، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمدٍ، وعلىٰ الله وصحابته أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس



لأسباب شرح الصدر
للعلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ
دار سبيل المؤمنين
للنشر والتوزيع
E-mail:dar_sabilelmomnen@yahoo.com